

مَدِينَةُ الْفَكَرِ الْعَالَمِي

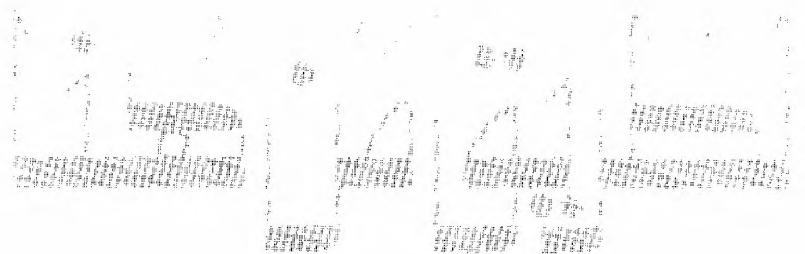


الْهَدْيَةُ مِنْ كُلِّ



دار الشروق

محمد الفرزالي



دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تَخَلُّفُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيُّ قَضِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مُخْجِلَةً ! وَهَذَا التَّخَلُّفُ أَطْمَعُ الْأَقْوَاءِ فِيهِ ! بَلْ قَدْ طَمَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَحْسَنُ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ ! وَشَرُّ مَنْ ذَلِكَ أَنْ هَذَا التَّخَلُّفُ أَصْلَقَ بِالْإِسْلَامِ تَهْمَةً كَثِيرَةً ، بَلْ إِنْ عَقَائِدَ خَرَافِيَّةً فَكَرِتَ فِي إِقْصَائِهِ وَوَضَعَ الْيَدَ عَلَى أَتَابَاعِهِ . . .

وَلَسْتُ أُلُومُ أَحَدًا اسْتَهَانَ بِنَا أَوْ سَاءَ ظَنَّهُ بِدِينِنَا مَادِينَا الْمَسْؤُلِينَ الْأَوَّلَيْنَ عَنْ هَذَا الْبَلَاءِ ،
أَنَّ الْقُطْبَيْنِ السَّابِقَيْنِ لَابْدَ أَنْ تَفْرِسَهُ الْذِئَابُ .

وَقَدْ نَهَضَ كَثِيرُونَ لِمُعَالَجَةِ هَذَا الْانْحِدَارِ ، وَإِزَاحَةِ الْعَوَاقِقِ الَّتِي تَمْنَعُ التَّجَاوِبَ بَيْنَ الْأَمَّةِ وَدِينِهَا أَوْ إِزَالَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ أَمَّةً كَانَتْ طَلِيعَةَ الْعَالَمِ أَلْفَ عَامٍ تَرَاجَعَ هَائِمَةً عَلَى
وَجْهِهَا فِي مُؤْخِرَةِ الْقَافِلَةِ الْبَشَرِيَّةِ . . .

وَرَأَيْتُ نَاسِدِي الْإِصْلَاحِ فَرِيقَيْنِ ، فَرِيقًا يَتَجَهُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَى أَنَّهُ أَدَاءٌ سَرِيعٌ لِتَغْيِيرِ
الْأَوْضَاعِ ، وَفَرِيقًا يَتَجَهُ إِلَى الْجَمَاهِيرِ يَرَى فِي تَرْشِيدِهَا الْخَيْرَ كُلَّهِ . . .

قَلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ إِلَى السُّلْطَةِ لِتَحْقِيقِ رِسَالَةِ رَفِيعَةٍ لَابْدَ أَنْ يَكُونُوْا مِنَ
الصَّدِيقِيْنَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِيْنَ أَوْ مِنَ الْحُكَّمَاءِ الْمُتَجَرِّدِيْنَ وَالْفَلَاسِفَةِ الْمُحَلِّقِيْنَ ! وَأَيْنَ هُؤُلَاءِ
وَأَوْلَئِكَ ؟ إِنَّهُمْ لَمْ يَنْعَدُمُوا ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ عُمْلَةٌ نَادِرَةٌ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ أَيِّ حُكْمٍ رَفِيعٍ الْقَدْرِ لَنْ يَبْلُغَ غَايَتِهِ إِلَّا إِذَا ظَاهِرَهُ شَعْبٌ نَفِيسٌ الْمَعْدُنِ
عَالِيَ الْأَهْمَةِ ! .

إذن الشعوب هى الأصل ، أو هى المرجع الأخير ! وعلى بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير
لا ليذوبوا فيها وإنما ليرفعوا مستواها ويفكوا قيودها النفسية والفكرية ، قيودها الموروثة أو
التي أقبلت مع الاستعمار الحديث . . .

وجاء الاعتراض السريع : إن السلطات القائمة لن تأذن لهم بذلك فهذه السلطات إن
لم تَوْجَلْ على منافعها وَجَلَتْ من القوى الكبرى التى تملك زمام الأمور في العالم الكبير ،
ومن ثم فسوف تخرس الدعاة وأولى النهوى . . .

ولم تخدعني هذه الحجة على وجاهتها الظاهرة ، ولم أرها ذريعة للاشتباك مع الحاكمين ،
وأخذ الزمام من أيديهم بالقوة ، فقد رأقت كثيرة من مراحل الصراع على السلطة درست
ناسا نجحوا في الوصول إلى المناصب الكبرى فلم أرهم صنعوا شيئاً ، بل لعلهم زادوا الطين
بِلَّةً . . . !

إننى أناشد أولى الغيرة على الإسلام وأولى العزم من الدعاة أن يعيدوا النظر فى أساليب
عرض الإسلام والدفاع عنه ، وأن يبذلوا وسعهم فى تغيير الشعوب والأفكار ، سائرين فى
الطريق نفسه الذى سار فيه المرسلون من قبل . . .

والإسلام اليوم يعاني من أمرين : الأول تصوّر مشوّش يخلط بين الأصول والفرع ،
وبين التعاليم المعصومة والتطبيقات التى تحتمل الخطأ والصواب وقد يتبنى أحکاماً وهمية
ويدافع عنها دفاعه عن الوحي ذاته !! .

الثانى جماعات متربصة تقف بعيداً دون عمل ، تنتظر بأعداء الله الويل والثبور وعظائم
الأمور ، وهى في ميدان الدعوة الإسلامية بطالة مقنعة لأن المسلم سواء ملك سلطة رسمية
أم لم يملك ، إنسان ناشط دعوب لا ينقطع له عمل في الشارع أو البيت أو المسجد أو
الحقل أو المصنع أو الدكان أو المكتب . . .

وليس العمل المطلوب مضغ كلامات فارغة ، أو مجادلات فقهية أو خصومات تاريخية ،
إن العمل المطلوب أسمى من ذلك وأجدى !

إننا نحن المسلمين انهزمنا في ميادين كبيرة لا تحتاج إلى عصا السلطة ، والمجتمع الذي يعجز عن محو تقاليد سيئة في دنيا الأسرة لن يحقق نصراً في دنيا السياسة وكيف ينفذ قوانين الشريعة من لم ينفذ قوانين الأخلاق؟ .

ليس من الإسلام أن أضع قدما على أخرى ثم أرتفع من جن سليمان أن تضع بين يدي مقاليد الحكم ..

إن الجهاد الإسلامي كدح مُضن ، في ميادين وعرا ذكرت نماذج لها في هذا الكتاب ، وقد ساق الله الدولة لل المسلمين الأوائل وهم مشغولون بالعمل له ، وبناء مجتمع ربانى خالص من الرذائل والمارب ، أى أن أولئك المسلمين عُرِفوا بطراز معين من العقائد والعبادات والأخلاق ، وطراز آخر من التفكير والتدبیر والسلوك يشرفهم ويعلى قدرهم ، ولم يعرفوا بسلبية ولا أناانية ولم يُزِّرْ بهم جمود ولا طيش ..

أريد من المسلمين بين الأطلسي والهادى أن يبدأوا العمل لفوريهم في تلك الميادين المهجورة ، وأن تكون لهم أجهزة دوارة متجة ، ولُوا الحكم ألم يلوه ! .

المهم أن أبذل وسعي ، فإن وصلت إلى هدفي أو مت دونه لقيت الله ومعى عذرى «إِنما نذهبن بك فإننا منهم متقدمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإننا عليهم مقتدون» (١) .

لقد خيل للبعض أنه يمكن السطو على الحكم بطريقة ما ثم يتحول هذا السطو إلى وجود مشروع عندما يقيم هذا الحاكم بعض شرائع الحدود والقصاص ! سيكون الحكم إسلاميا بهذه الحيلة الظرفية ..

قلت لأحد المعجبين بهذه الطريقة ، إن ذلك معناه أن اللص الكبير يقطع اللص الصغير، أو كما يقول الحسن البصري : سارق السر يقطعه سارق العلانية ! .

وقد كشف النبي ﷺ في سنته : أهلاك الأمم من قبلنا إنما يجيء من هذا المسلك إذا

(١) الآية : ٤١ ، ٤٢ من سورة الزخرف .

سرق القوى تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ! .

إن الفرعونة مرفوضة قبل تولى المناصب أو بعد ذلك ، ومن عجائب العالم الإسلامي وحده أن الحكم من طرق الشراء ، وقد فكرت طويلاً عندما قرأت أن الإسرائييليين أهدوا رئيسهم « جولدا مائير » مطبخاً لمناسبة اعزازها الحكم بعد سنين طويلة . . .

مطبخ ؟ إنه هدية سارة لديها ، قد تكون محتاجة إليه ! أما بالنسبة لبعض موظفينا فهدية محقورة ، فكيف إذا كان المطبخ هدية للرؤساء والملوك ؟ .

إن العقل الذي يفكر به الدعاة والمدعون يجب تغييره ، وأستطيع الجزم بأنه ليس عقلاً إسلامياً .

في هذا الكتاب صور قليلة لمفارقات بين واقعنا وديتنا ، في الماضي والحاضر ، أرجو أن تجد حظها من التدبر والوعي ، فإن مستقبلنا منوط بهذه اليقظة .

محمد الغزالى

دَعَوَاتُ تَائِهَةٍ

فِي أَمَّةٍ مُهَدَّدَةٍ بِالضَّيَاعِ

راقبت الأوضاع في أقطار إفريقية الناطقة بالفرنسية والناطقة بالإنكليزية ، فعرفت كيف مكّن الاستعمار لنفسه ، وكيف وفر الضمائر لبقائه وان جَلَّتْ جنوده عن الأرض ! .
نعم قد تخلُّوا الأرض منه ولكن سكانها امتلأت نفوسهم به ، وارتبطوا مادياً وأدبياً بمواريه ، فهم راكنون إليه معتمدون عليه ! .

ماذا صنع الاستعمار لتحقيق هذه الغاية ؟ لقد فرض أولاً لغته وجعلها لغة المكاتب في الدواوين ، ولغة الدراسة في جميع المراحل التعليمية ، ولغة التخاطب المحترم في البيوت والشوارع ، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين ، ولكنه يعلن مقته للغة العربية ، ويتجاوزها في كل محفل ، ويؤخر رجاتها عن عمد ! ولا سيما إذا كان المسلمين فوق تسعة أعين السكان ، ومن هنا كانت الفرنسية لغة السنغال ، والإنجليزية لغة نيجيريا ، أما لغة القرآن فهي منبوذة ، أو مهملة ! .

وقد نشأ عن ذلك أن المسلم في هذه الأقطار محجوب عن التراث الإسلامي ؛ لأنه مدون باللغة العربية ، وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئاً عن الإسلام فعن طريق الإفك الذي سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين ، الإنكليزية ، أو الفرنسية . . ! ويا ضيعة الأجيال الجديدة . . . !

ومع حركة الافناء المرسوم للغة القرآن الكريم قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت

الانتاج صناعيًا أو زراعيًا في أيدي السادة الأجانب ، أو في أيدي العناصر الموالية لهم فهم ملّاك الحقول وهم ملوك الصناعات التحويلية أو التجمعية ، وهم مدورو المصارف والشركات . . .

قد يَقال شوقي : « يا مال الدنيا . أنت والناس حيث كنت » .

وقد فقه المستعمرون هذه الحقيقة ، فدسوا أصبعهم في منابع الثروة ومصارفها وأسّعوا أهل البلاد أن الرغيف الذي يأكلون ، والشوب الذي يرتدون ، والمرافق التي يستخدمون ، في يد أولئك المستعمرين المهرة ، وأن بعد عنهم طريق الضياع . . .

فإذا جَلَّتُ الجيوش عن الأرض لأمر ما فلا تمرد هناك ولا تحرر فأيدي المواطنين هي السفل في ارتقاب العطاء الذي لابد منه ، وسادة الأمس بالقهر العسكري هم سادة اليوم بالتفوق الاقتصادي والحضاري ، ولا معنى لاستعمال العصا إذا كانت الإياءة بالعين ، أو الشفتين تكفي للخضوع . .

على أن الأمر لا يحتاج إلى التلويع بالقوة فإن الشعوب المغلوبة تتبع غالبيها وتمشى وراءها مسحورة ، وتترك تقاليدها لتقاليدهم وأفكارها لأفكارهم .

ومع أن الإسلام هو الدين الأول في أفريقيا فإن الظروف التعيسة التي مرت بأمتة في القرون الأخيرة أمكنت من خنادق ، وأنزلت به هزائم موجعة ، بل أطمعت الملل الخرافية في طي راياته ومحو آثاره . .

وهكذا مُشى التبشير الصليبي في ركاب الاستعمار المكتسح يريد أن يضرب الإسلام الضربة المميتة ! .

وأحسَّ أهل الغيرة بخطورة المعركة ورأوا بعد سُبات طويل أن يتحركوا ، فهل أحسنوا صُنْعاً ، وهل وقفوا مؤامرات التبشير والاستعمار ! وهل أغاثوا الشعوب الصارخة ، أو داؤوا عللها ؟ للننظر ما هنالك ! .

الثقافة الإسلامية في أضمحلال ! ولم لا إذا كانت الانكليزية أو الفرنسية اللغة الأولى للدولة والشعب ؟ وربما كانت الأولى والأخيرة ! .

الجماهير تعانى من الجهل والفقر . وهى تقبل العون من كل عرض له ، ولو كان مقروراً
بالكفر والفسق ..

التقاليد السائدة ما أنزل الله بها من سلطان ، وربما كانت التقاليد الغازية أبعد منها عن
الحرافة وأجدى على الناس .

فهل اشتبك الدعاة الإسلاميون مع مصادر الداء ، وبذروا بذور الإسلام الحق ،
وجاهدوا في الميدان الوحدى يتقرر فيه مصير هذا الدين ؟ .

اتصلت بعضهم لأسمع منه ماذا سيصنع ، ورأيت الاكتفاء بالسماع وعدم الخوض في
أى جدال ..

قال داعية من رجال الجهاد الإسلامي : إن تعطيل الأحكام الشرعية سبب ما نزل بالأمة
من بلاء ولابد من محاربة هذه الجاهلية ، وإزالة الطواغيت التي تساند هذا الكفر .. ! .

وقال داعية من رجال السلفية : إن تأويل الآيات جعل القلوب تزيغ ، ثم انضم إلى
ذلك التقليد المذهبى ، وهجر السنة المطهرة تمشيا مع آراء الرجال ، وانتشار الطرق
الصوفية ، ولا تصلح الأمة ما بقى هذا الانحراف .. .

استعمت إلى كلام هذا وكلام ذاك ، وأحسست أن القوم لن يكيدوا عدوا ولن يكسبوا
معركة ، إنهم لم يدرسوا الميدان الذي توجهوا إليه ولا الجحور التي تنطلق منها الأفاسى ،
إنهم كالطبيب الذي جاءه مُصاب في رأسه فصنع له جبيرة على قدمه ! .

وأطرقت أفكار في عواقب هذا الجهاد الطائش ، وقال لي صديق : ما ترى ؟ .

قلت : لن يمضى عام على تحرك هؤلاء حتى تشييع الحزارات في البيوت والمساجد ،
وتدخل طوائف من الشباب السجون ويزداد الاستعمار والتبشير ضراوة ورسوخاً .. .

وصدق حَدْسِي وليته ما صدق ، ووجدتني محاطا بقضايا ومشاكل تثير الغثيان .. ! .

أصحىع أن الأكل على المائدة حرام ؟ ويجب أن نأكل على الأرض إقامة للسنة ؟ قلت :

إن الله أنزل مائدة على أصحاب عيسى ، وما أظنه حظر على أصحاب محمد أن يأكلوا على مثلها - و كنت أضحك بمرارة - ثم قلت :

ترى هل تشتري المائدة من لندن أو باريس ؟ أم أن الصناعة المحلية ارتفت عندكم ؟ .

وجاء آخر يسأل : هل في ارتداء البدلة الفرنجية تشبّه بالكافر يلحقنا بهم ؟ .

قلت : التشبه المنكر يكون في العقائد والخلال لا في الملابس والנעال ..

وحدث أن خطيباً على منبره قال لرجل دخل ليصلّي الجمعة قم فصلّي تحية المسجد ! فقال الرجل نحن مالكيّة تبطل عندنا هذه الصلاة !! فقال الخطيب المفوه : أترك محمداً وتتبع مالكا ؟ وكانت فتنة مائجة قررت لها عين الاستعمار ! .

وتدخلت لأؤكد أن أئمة الفقه لا يقدّمون بين يدي الله ورسوله ، وأن الاختلاف يكون في تفسير ما ورد ، أو في قيمة ثبوته ، وما يفكّر أحدّهم أبداً في خالفة رسول الله ﷺ . . .
وبلغني أن أولياء فتاة الغوا خطبة شاب رفض إهداء أساور من ذهب لابنته ، لأن ذلك في نظره حرام ..

وطرد شاب من الجامعة لأنّه أصر على دخول المعهد بثوب لا يبلغ الكعبين .

وكانت الدعوة إلى الجهاد ، وإقامة حكم إسلامي غامض ، لا تدرى شيئاً عن حقوق الشعوب ولا ضمانات الحرية ولا قيام أحزاب ولا حرية الانتخابات ..

وإذا كان المسلمون قد تراجعوا في أنحاء العالم وسقطت دولتهم الكبرى في غير ميدان معايير اجتماعية وسياسية اقترفوها وتوارثوها فإن الدعاة الجدد لم يكلّفوا أنفسهم دراسة خطأ ولا تصحيح مفهوم .

ولذلك كثر صياغهم وقللت جدواه ، واضطرب الفكر الإسلامي في درك هابط لا يشرّخيراً في دين أو دنيا ..

والواقع أن الاستعمار الصليبي جلا من تلقاء نفسه عن أقطار إسلامية وغير إسلامية

دون قتال ولا تضحيات لأنه كان شديد الوثوق من أن هذه الأقطار ستظل ذيولاً له ،
تستمدّ منه وتعتمد عليه ..

إن الأ بصار الكليلة لا تدرك الأوضاع التي تفرض التبعية وتجعل أمة وراء أمة ، ويبدأ
تحت يد ... ! .

إن الأ بصار الكليلة لا تدرك الدعائم التي تقوم بها الرسالات ، وتستقر بها السياسات ،
ولا تعرف قيمة الاستبشار الثقافي أو الازدهار الحضاري والصناعي في نصرة الحق وإعزاز
أهلها وفرض أخلاقه وأهدافه ..

ولتتذرّب هذا المثال لما يقع بعيداً عن أرضنا ومجتمعنا ...

من بضع سنين أعلنت حالة الطوارئ في الولايات المتحدة ، وسيطر الانتباه على
أعصاب الناس وأفكارهم ! ماذا حدث ؟ إنذار بهجوم ذري ؟ أم إعصار بحرى من تلك
الأعاصير التي تخلف وراءها الدمار ؟ لا هذا ولا ذاك الذي حدث أن أولى الأمر كانوا
مسترسلين في الإيمان بعزمة أمريكا وسبقها البعيد ، ثم اكتشفوا بعثة أن الاتحاد السوفيتى
قد سبّهم ، وخلفّهم وراءه في ميادين علمية كثيرة ! .

وتصدر الأمر بإنعام النظر في برامج التعليم كلها ، ومراجعة كل شيء من المرحلة الأولى
إلى درجات التخصص ، وانشغلت الحكومة والشعب بهذه الكارثة ، وضرورة السعى
الحيثى لطى مسافة التخلف وإعادة التفوق القديم ...

ولم يمكث القوم غير بعيد حتى حققوا ما أرادوا ، وهم الآن في إنعام تجاههم لما يسمى
بحرب الكواكب ، سيقول الناس : عبقرية علمية جديدة بالاعجاب وهذا صحيح !
والأجدر بالإعجاب عندي هو الشعور بحدة المنافسة ووجوب السبق .

إذا كانت القدرة العلمية تستدعي الثناء ، فإن الأحوال النفسية المصاحبة من اعتراف
بالقصور وشحذ للهمة واعتداد بالنفس وحرص على النجاح كل ذلك لا يجوز إهماله ! .

ترى ما هي طبيعة هذه الأمة ؟ أتظن نفسها ممثلة العالم الحرّ فلا يسوغ أن يهزّها القابعون

وراء الستار الحديدي؟ ربها ، أتظن نفسها على نصيب من الإيمان بالله وكتابه المقدس فلا يجوز أن يهزهم الملاحدة؟ ربها ، أم هي كبراء الشروة والسلطة والنصر المتتابع؟ ربها قد يكون ذلك كله أو بعضه وراء مكانة الصدارة التي نالها شعب الولايات المتحدة ..

على أتنا لا ننسى ، ومن الخسارة أن ننسى ، أن هؤلاء الأميركيين قتلوا نصف مليون ياباني لإثبات وجودهم ، وأنهم من الناحية الدينية رصدوا قناطير مقتنة لنشر الصليبية ، وقناطير مثلها لدعم اليهودية ، ومحو فلسطين !! لقد عادوا الإسلام بغير وعي ! .

وها هم أولاء يسرون نحو أهدافهم بالتفوق العلمي في البر والبحر والجو ، فهذا نسير نحن إلى أهدافنا؟ وإذا أعلنا حالة الطوارئ لا ستدرك ما فاتنا فما هو التغيير الذي نحدثه حتى يتغير ما بنا؟ مصدق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١) .

إن طلاب العلم في مدارسنا وجامعاتنا يحفظون إلى حين بعض المذكرات والملخصات حتى إذا جاء الامتحان قاءوها على أوراق الإجابة ، ثم انقطعت صلتهم بالعلم ..

وهناك رجال رزقوا لذة المعرفة وبرزوا في العلوم التي درسوها حتى بلغوا القمم ، ويخزننا أن جمهورا من هؤلاء التحق بأوروبا وأمريكا مؤجرا علمه لمن يقدرونها مادياً وأدبياً .

وهذا بلاء عظيم وخسار فادح ، ووددت لو عالجنا هذا المسلك برشد و töدة ، فإن ضياع ثروتنا البشرية أهم من ضياع الثروات الأخرى .. .

لكنني لا أترك قضية اليقظة النفسية والفكرية دون أن أبين خطرها على حاضر الإيمان ومستقبله ، ذلك أن الطفولة العقلية السائدة بين متحدثين إسلاميين تخشى منها على أمتنا ، بل يجب أن نعلم أنه لا مستقبل لنا ما بقى هذا الاسترخاء الفكري والخلقى يصبح شؤوننا .

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

إن العمل الصالح ذكر في القرآن الكريم ضميمة لابد منها مع الإيمان كى يفلح المرء في دنياه وآخرته ، فما هذا العمل الذي تكرر ذكره أكثر من سبعين مرة ؟ .

بعض الناس يتصور أن العمل المنشود هو العبادات المرسومة المأносنة لا يعودوها إلى غيرها ! وإذا كان هناك توسيع في الدلالة فإن دائرة الصالحات تشمل شئون الدنيا عندما تصبحها النية الحسنة ، وهذا التوسيع وصف لبعض الخاصة من أهل الدين ..

وأحسب الأمر يحتاج إلى إيضاح وتدقيق ، فإن كلمة « الصالحات » تتسم بالشمول الذي يتناول كل شيء ويستوعب كل مسلك ، ويستوي فيه ما حدد الشارع كيفيته وهيئته ، وما تركه لاختلاف الأزمنة والأمكنة تباشره النفس الإنسانية لتضع عليه بصماتها المؤمنة وتسوق به الحياة إلى الهدف الذي تشاء ..

بعض الناس إذا ذكرت النقود ، ذكر الدينار والدرهم أو الدولار والجنيه ، وإذا ذكر الدين ذكر الصلاة والصيام وما يدرى شيئاً عنها وراءها .

واقتصر التدين على نوعين أو أكثر من الطاعات المأثورة إزراء بحقيقة الدين ، وطمس رسالته وأثاره ، واعطاء الشيطان مساحات رحبة يجري فيها كيف يشاء ..

تلقت سورة القصص ، وربطت آخرها بأوها ، فرأيت أن الله سبحانه شرح أحوال الاستبداد السياسي والطغيان الاقتصادي في قصتي فرعون وقارون ثم ساق هذا القانون الحضاري الصارم ﴿ تلك الدار الآخرة يجعلها للذين لا يربدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقة للمتقين ﴾^(١) .

إنه بعد عشر صفحات من السرد التاريخي الحافل قرر هذه الخلاصة أن الاستعلاء والفساد يستحيل أن يأتي بخير ، كل فرد مزهوٌ بنفسه فوضوى في سلوكه سائب في إدارته ظالم لغيره ناس لربه لابد أن يجني الويل من هذه الخلال .

(١) الآية : ٨٣ من سورة القصص .

إن عناصر العدل السياسي والاجتماعي من صميم الأعمال الصالحة ، ولن ينزل الوحي ليعلم المدير كيف يدير ، أو المدرس كيف يعلم ، أو الصانع كيف يبدع أو السائق كيف يحترم الطريق فذلك كله تهدي إليه الفطرة المؤمنة ، وتندفع إليه بالذكاء الطبيعي ، ومن ثم اقتن الإيمان والعمل الصالح ..

هذا العمل الصالح تتداعج دائرته لتشمل الدنيا كلها ، وحرية الحركة فيه مطلقة ما تستثنى منه إلا المؤثرات التي جمد الشارع قالبها عندما قال مثلاً «صلوا كما رأيتموني أصلّ . . . » .

وهذه المؤثرات القولية والعملية قليلة ، ووقتها محدد .. أما بقية الأعمال الصالحة فلا تكاد تحصر ، إنها الحياة كلها ، وحسب المسلم في شرح موقفه منها أن يتذر الآية الكريمة «فُلِّ إِنْ صَلَاتِي وَنِسْكِي وَمَحْيَايَ وَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١) .

وهناك ملحوظ مهمٌ فقد يعتري العبادات المقررة ما يطيح بثمرتها ويبطل جدواها ، وذلك عندما تحول إلى عادات بدنية تؤدي خالل غيبوبة عقلية ، والحق أنه لا خير في قراءة بلا وعي ، ولا في ركوع بلا خشوع .

ومع أن الصلاة عمل من قمم الشرف الإنساني فإنها آخر ما ينحل من عرى الإسلام والسبب هو هبوطها عن درجة مناجاة الله إلى أقوال وأفعال ميتة لا تؤكد يقينا ولا تؤسس خلقا .

وعندما تنحط العبادات إلى هذا المستوى فإن أعمالاً مدنية أخرى تشتد فيها حرارة الإخلاص ويتألق فيها حسن القصد تكون أرجح عند الله ، وأجدى على الحياة من هذه العبادات العليلة .

(١) الآية : ١٦٢ من سورة الأنعام .

وأكره أن أوازن بين عبادات معتلة ، وعادات رفيعة ، لأن العصر الذي نحيا فيه واهي الصلة بالله ، ومايسر أن يزهد مغرور في تنفيذ أوامر الله بدعوى أنه يقوم بأعمال صالحة أخرى ..

وإنما أبحث لنفسي أن أكتب ما كتبت زجرا للمؤمنين الكسالى أن يسيئوا إلى الطاعات بجفافهم الروحى ، وحوائهم العقلى ، وتحويمهم معالم التقوى إلى عالم من الأشباح ويختفي إذا جد الجد .

وأدهى من ذلك أن يتسبوا ببعض الأعمال ويهملوا ببعض آخر .

إنه لو قضى عمره قائماً إلى جوار الكعبة ، ذاهلاً عنها يتطلبه مستقبل الإسلام من جهاد علمي واقتصادي وعسكري ، ما أغنوه ذلك شيئاً عند الله .. إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد ! فحراسة الحق كتعليمه .

وإقامة سياج حوله ، أيًّا كان هذا السياج لا يقل عن الاعتناء بنصوصه .

ال المسلم مكلف بإصلاح كل عمل ، أو عمل كل صالح ، وهذا الانشطار المعيب في السلوك البشري مرض طرأ على أمتنا من انحراف القرون لا من تعاليم الإسلام ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييْنَه حياة طيبة ولنجزِيْنَه أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وأول ما أصاب النفس الإنسانية من عطب توهماً أن الصالحات لا تعدو رسوم العادات المروية فإذا أحرز المرء نصيباً منها وأراد المزيد كرر الصلاة وكرر القراءة ، لأنه لا يعرف صالحات غير ذلك .

وما درى أن ميدان الصالحات يستوعب حركاته وسكناته كلها ، ويحوّلها إلى قوى تدعم

(١) الآية : ٩٧ من سورة النحل .

الخير لأن الصلاح تغير نفسي شامل يفرض على صاحبه حب الكمال والرغبة في الاحسان ، فهو يتقلب في الدنيا كما وصف الله ﷺ «وَمَن يَسْلِمُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (١) .

إن الشلل الذي أصاب أيدي المؤمنين في ساحات الإنتاج ، وحجب عيونهم عن الملاحظة الذكية ، وجعلهم يُجَارُ عليهم ولا يغيرون ، ويوخذون منهم ولا يعطون ، ويتقدمون غيرهم ويتأخرون . إن هذا كله حطّ قدرهم وقدر الدين معهم !! .

وقد رأينا الولايات المتحدة تعلن حالة الطوارئ لأنها توهمت الروس سبقوها في بعض آفاق المعرفة ، وصرخت أجهزتها الرسمية والشعبية منذرة بالويل إذا لم يقع تغيير عام .

فهل أعلنا أي حالة من حالات الاستنفار والتفریع بعدما تدحرجنا إلى العالم الثالث ، واقعاً مُرّاً لا خيالاً طائفاً !! .

والغريب أن الذين استيقظوا أو زعموا ذلك لم يقطعوا القيود التي جمدت الموهوب ، ولم يشخصوا العلل التي أعجزت الأمة ، بل سلكوا طرائق هازلة ، فمنهم من تخصص في محاربة الفقه المذهبى في الوضوء والصلوة ، ومنهم من جدد الحرب على الجهمية والأشاعرة ، ومنهم من ذهل عن أصول الحكم وقواعد السياسة الراسدة وتحصص في طلب بعض الأحكام الفرعية ، ومنهم من عاد إلى التصوف غارقاً في وحدة الوجود ، ومنهم

ومنهم .

والأمر يحتاج إلى فهم صافٍ صادق لما يتطلبه الإسلام في الميادين التي انهزم فيها المسلمون روحياً وحضارياً ، وكيف نلحق من سبقنا ، ونربو عليه بما لدينا .. ولنبدأ بميدان العلم بعد هذا التمهيد الطويل .. فإن أنكى ما أصابنا جاءنا من الجهل الكثيف بشئون الدنيا والدين ، أو بحقائق الأرض والسماء .. .

* * *

(١) الآية : ٢٢ من سورة لقمان .

لماذا جفت ينابيع هذا العلم؟

هذه طرفة جديرة بالتسجيل والتأمل نقدمها بين يدي بحثنا ! .

في جامعة تونس أستاذ فرنسي كان يدرس علم الضوء أو البصريات كما يسمى في ثقافتنا القديمة ، وكان الأستاذ معجبا كل الإعجاب بقانون «الهازان» الذي اكتشفه أحد علماء العصور الوسطى ، وسبق به سبقا بعيدا ، وفتح به فتحا جديدا . . .

وسأله الطلاب : لكن من «الهازان» هذا؟ فقال : أظنه من كبار العلماء الإسبان ! .

وذهب الطلاب إلى الدكتور بشير التركي - وعنه نقلنا هذه الطرفة - فأجاب الرجل وهو دهش «الهازان» هذا هو الحسن بن الهيثم العالم العربي المسلم الشهير ، وهو راسخ في علم البصريات ، وله نظارات يضارع بها أعظم علماء عصرنا ، ولا تقل مكانته عن اثنين وأمثاله ، لأن العلم ما زال ينهل من كشوفه وأحكامه ، وقد يبقى العالم معتمدا عليه ألف سنة أخرى ، وهو من أول الأساتذة الذين درسوا في الجامع الأزهر . . قال الدكتور بشير : وأما قانون الضوء المنسوبان إلى ديكارت فحسن بن الهيثم هو صاحبها ، وواضعها قبل ديكارت بستة قرون ، وكتابه علم المناظير لا يزال مرجعا في موضوعه . . .

وذهب الطلاب إلى الأستاذ الفرنسي بهذه الإجابة فلم ينطق بكلمة ، وكل ما حدث منه أنه أضر بإنصافه تماماً عن الإشارة من قريب أو بعيد إلى «قانون الهازان» هذا ، فما ذكره بخير ولا شر . .

وظاهر أن الأستاذ قد بوغت بع祌مة عالم مسلم وهو يمقت الإسلام من الأعماق فلاذ بالصمت ، وطوى القصة كلها . . .

على أنني عدت إلى نفسي وإلى قومي أوجه اللوم بعد اللوم ، وأتساءل بغيظ : فما مكانة الحسن بن الهيثم في تاريخنا ؟ وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيان والخوارزمي .

إننا قبل أعدائنا كنا أسرع إلى إهالة التراب عليهم ، ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قدما وعبد الحليم حافظ حديثا ، أما الراسخون في العلم فهم يسرون إلى جوانب الجدران ، وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء ، أو في استخفاء . . .

ولنترك الآن أنواع العلوم التي انشغل المسلمون بها ، والتي ظنوها للأسف هي العلم الجدير بالتحصيل والتفرغ ، ولننظر : ماذا كسبنا من قلة الدرأية بالعلوم المادية والرياضية والكونية والصناعية وغيرها ؟ وأين استقرت بنا النوى بعد رحلة في العلوم النظرية والقضايا الترفيهية استغرقت عدة قرون ؟ ؟ .

ذكرت في مكان آخر خبر رحلتي إلى عاصمة « موريتانيا » الإسلامية ، وكيف أنبعثة صينية شيوعية هي التي اكتشفت المياه الجوفية التي تغذيها الآن ! ناس يأتون من آخر الدنيا شرقا إلى شاطئ الأطلسي غربا لهم خبرة في علم المياه تتبع للعطاش أن يرتووا وهم في بيوتهم ، وأن يرتفعوا كيف شاءوا بالسائل القريب البعيد ، تُرى أين كنا وماذا نصنع ؟ .

وما يقال في الماء يقال في النفط ، ويقال في كل المواد المدفونة تحت الشرى أو المهملة فوقه .

أليست هذه كلها مما يدخل في نطاق التوجيه القرآني : ﴿أَوْلَمْ ينظُرُوا فِي مُلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) .

أليست هذه شيئا ينظر فيه ؟ وتلتمس الحكمة من وجوده ؟ وتدرك عظمة الله من

(١) الآية : ١٨٥ من سورة الأعراف .

خلقه؟ لماذا يكون بصر الآخرين إليها حديداً وبصرنا إليها بليداً؟ وما ثمرة ذلك التوقف
الآخر؟ .

إن الله جعل معرفته والحفظ على حقوقه مربوطين بدراسة الكون ، والتمكن فيه فإذا كان
خفافاً في هذه الدراسة ، أو كنا ذيلاً لغيرنا فهل نحن بهذه الحفة عارفون بالله ، قادرؤن على
صيانته حرماته؟؟ .

يقول الله عن الناس : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ^(١) .
فأى تناقض مذهل إذا مسى الكافرون بين مخلوقات الله وهم يُسبرون أغوارها ويعروفون
أسرارها ويحيطون استخدامها ، ومسى المؤمنون بين هذه المخلوقات لا يكادون يفهون
حديثاً أو يحسنون صنعاً؟ كل ما يحيطونه هو الحوقلة والتواكل ! فإذا بدا طمع شخصى
طاروا إليه بسرعة البرق . . .

ويقول الله في آياته الدالة عليه ، المتجدد منها والموجود الآن ! « سنرهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق » ^(٢) فتسأل من الذي رأى الآيات السابقة ثم رأى
الآيات اللاحقة ، إن أولى الألباب يرصدون الزمان ويعرفون ما يكون وما كان ، وتحرك
أفكارهم وأحكامهم مع اختلاف الليل والنهار . . .

وقد رممت بأسى سدنة الإلحاد وسدنة الشرك ولحت نشاطهم الذهني والبدني في غزو
الفضاء ثم عدت إلى قومي فجفَّ حلقي وخرس صوتي : أين هذه العلوم بيننا ، وما الذي
أبعدها عنا . . .

قد يقول البعض : الدين تعريف بالله وتبصير بحقوقه فلماذا تذهب بنا بعيداً؟
والجواب السريع : إن القرآن لما عرّفنا بالله عرض علينا ملكته ، ولقتنا إلى أرضه وسمائه ،

(١) الآية : ٢ من سورة التغابن .

(٢) الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

والواقع أن أحسن تعريف بعظمة الله أن نعرف العالم الذي أقمنا الله فيه ، وجعل رسالتنا في نطاقه ..

قرأت أن المخ البشري يزن كيلو جراما وربعا ، وأن به عشرة مليارات من الخلايا ، لكن كل خلية غذاؤها وبقاوتها وأجزاؤها ونهاؤها أو فناؤها ، قلت : وفي الأرض نحو خمسة مليارات من البشر ! مَنْ القائم على إيجاد وإمداد كل خلية من هذه الخلايا ، وتوجيهها لتهدي وظيفتها الدقيقة ، مَنْ ؟ وهتفت : ﴿سبع اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدي﴾ (١) .

إن شعرة واحدة من مائة ألف شعرة تنمو على بشرة إنسان أو حيوان تفتقر إلى العناية التي تفتقر إليها كل شجرة تنبت على ظهر الأرض بين خط الاستواء والقطبين ..

ولا أفيض في حديث أنا فيه قاصر ، فقيام الأشياء بربها ما ندرى عنه إلا قطرة من بحر ، وأظن ما وصل إليه العلم في نصف القرن الأخير يساوى أو يربو على كل ما حققه العلم في القرون الأولى ..

والمهم هو المنهج الذي اختاره العلماء للكشف والبحث .. والمسلمون الأوائل عرفوا ثلاثة مناهج ، ذهب أحدها وأدناها إلى المنطق القرآني وبقى اثنان خيرهما قليل وعناوئهما ثقيل ، وهما بالقرآن الكريم علاقة ما ، وإن كانت علاقة يطول فيها الأخذ والرد.

ذهب المنهج الذي سلكه ابن الهيثم في البصريات والخوارزمي في الرياضيات ، وغيرهما من الرواد أصحاب الفطر السليمة ، وبقى منهج احتضنه علماء الكلام ، وأخر احتضنه علماء التصوف ، وكلاهما له أنصاره وثماره وما نحب الجحور ولا المغالاة ولا انتقاد الكبار ، ما نحب إلا إنصاف ديننا وتبئته من عيوب هو منها بريء ..

(١) الآية : ١ - ٣ من سورة الأعلى .

أنا ممن يرون أن ابن سينا الطبيب أذكي من ابن سينا الفيلسوف ، وقد انتفع الأوروبيون بطبيه خلال ثلاثة قرون ، فهذا أ Ferdinand نحن من فلسفته ؟ تسلية ذهنية ذكية عقيمة !! .

وأنا ممن يرون أن الفارابي الموسيقى أذكي من الفارابي المعلم الثاني ! قد تكون الحانه الشجية مساعدة للناس بعض الوقت ، أما خرافه العقول والأفلاك التي أعجب بها مع ما أعجب من فلسفة اليونان فهراء ما كان يليق بالعقل الإسلامي أن يتورط فيه ، أو يقف بيازائه ..

إن العقل الإسلامي لو التزم الخط القرآني المشغول باللحظة والتجارب المهم بالتنقيب والحقائق ، الجواب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن آخر ، ولقد نجذات صادقة مشمرة للمنهج العلمي الكوني الباحث في المادة لا فيها وراءها ..

ونظرة سريعة إلى المنهج العاطفى الصوفى الذى أيده الغزالى بحرارة ومشت فيه جماهير المسلمين باخلاص ، بيد أنى - قبل إلقاء هذه النظرة - أريد توکيد حقيقة جليلة ! أن العلم بالله أشرف ألوان العلوم ، وأن المعارف الأخرى إن لم تكن وسيلة إليه فلا خير فيها .

إن المرء يفقد قيمته الأدبية والمادية يوم يكون نابغة في فنٌ ما أو في الفنون كلها ثم هو بالله جاھل وعليه جرىء .

والعباقرة الذين يضعون أصابعهم على زناد التفجير الذرى ، وينذرون بإهلاك الألوف المؤلفة لغرض خسيس ليسوا إلا قطعانا من الذئاب الكاسرة أهانوا العلم ولم يكرمههم العلم !! .

نحن نحترم علوم الكون والحياة ، ونرى أنفسنا - باسم الله - مطالبين بافتتاح مغاليقها والتبريز فيها وذلك كله نابع من إعزازنا لربنا وحفاوتنا بصنعه ، وتلبيتنا لطلبه أن نفكرون ونستنتاج .. !

والذى يدرس الكون بغير هذه النية كالذى يدرس قصرًا مشيدًا لسرقة ، أو سيارة جميلة ليفرّ بها .

بعد توكيده هذه الحقيقة أعود إلى المنهج الصوفي القائم على التأمل الباطني ، والاستغراق الذاتي ، وتحويل العلاقة بالله إلى ذكر لأسمائه الحسنى يُحصى بالألف المؤلفة ، فإذا سكت اللسان تلَّفتَ القلب ، وأشرقت البصيرة . . .

ليس هذا النهج ما أفردناه من كتاب الله وسنة الرسول ، بل أجزم بأن العزلة الفكرية عن الكون انحراف عن الخط الإسلامي ، وفرار من تكاليف اليقظة الذهنية التي فرضها علينا القرآن ، بل قد تكون طريق العجز عن مقاومة الباطل ومؤازرة الحق . .

ثم إنني أرتاب في أن تزداد الألفاظ المفردة أو الكلمات المركبة يورث علماً عظيماً أو يرفع صاحبه إلى مستوى عالٍ من شهود المجد الآلهي ، وقد يكون هذا الأثر الجليل عقب قراءة كتاب في الطب أو في الفلك أو في أفق من آفاق الكون الكبير . . .

إن أولى العلم هم الخبراء بالله ، الشائمون لأنوار وجوده ، المراقبون لقيمه على خلقه . .

وأبو حامد الغزالي له سهم كبير في الدراسات الطبيعية والمادية وقد وصف عجائب الخلق وصف رجل مُطلِع ، بل إن وصفه للعين البشرية يقترب من العلم الحديث ، ولعل ذلك هو الذي أعاذه في خلوته أو آنسه في عزلته . . .

وعلى أية حال فنهج القرآن لا يقتدمه نهج أحد ، ويستحيل أن يحمى المسلمين دينهم ، وأن ينضج إيمانهم بربهم إلا إذا تفقهوا في آيات الله العيانية والبيانية جميعاً ، وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغلب ولا تُغلب وتقود ولا تُقاد ! .

هل لنا نصيب من العلم نقطع به هذا المشوار الطويل ؟ تلَّفتَ حولي ثم أطربت واجماً !
إن النصيب الذي لدينا هو ما يرميه خصومنا إلينا فنحن على فضولهم العلمية نعيش ! .

لقد استعدنا سيناء على النحو الذي عرف الناس ، فما استطعنا إلى الآن أن نبني قرية مثل «ياميت» نستنبت البقول والورود في الهواء ونصدر نتاجها إلى أوربا ، والعلم الذي فقدناه هو الذي فقده الجزائريون لما هبّطت محاصيل الحبوب بعد الاستقلال ، وهو الذي

فقد السودانيون الذين يجرون فوق أخشاب أرض ، وهو الذي فقد المسلمين على التعميم لما مشوا تحت الشمس وعلى أبصارهم غشاوة .

ألا يضحك الشيطان طويلاً عندما يرى جهازاً علمياً ضخماً عند الملاحدة الذين يرفضون عقيدة الألوهية ، وجهازاً علمياً ضخماً عند المشركين الذين يجعلون الآلة متنى وثلاث ورباع ! فإذا جاء أرض الإسلام لم ير إلا علمًا مستوراً من هنا ومن هناك ، لأنه لا منابع له في أرضه .. !! .

وقد حرص الأوروبيون والأمريكيون على أن يظل هذا العلم منقولاً لا معقولاً ، مجلوباً لا أصيلاً ، مشترياً لا مكتسباً حتى نظل فقراء إليهم أبداً ، ما نستطيع من قيودهم فكاكاً ..

يقول الدكتور بشير التركي : في العهود الأولى للإسلام أقام المسلمون صناعات جديدة عديدة في ميادين شتى ، وبعد أن أخذوا كل ما وصلت إليه الحضارات السابقة أبدعوا من جهودهم ما أربى عليها وصهروا ذلك في صناعة متطرفة كانت دعامة مكينة للبيضة الإسلامية التي شملت العالم أجمع ، بل كانت طوراً عظيماً في الارتفاع العالمي .

ثم سرعان ما تدهورت هذه الصناعة الإسلامية ، وصارت أثراً بعد عين ، وربما رأى الناس بقايا منها في الصناعات التقليدية التي يراها السائرون الأجانب ..

أما الغرب فقد احتكر لنفسه في العصور الأخيرة كل الصناعات التي تقوم على الطاقة ، وربما كان قليل الاكترااث ببعض الصناعات التجميعية والتحويلية الموجهة للاستهلاك ! أما الصناعات الكبيرة فقد أحكم قبضته عليها واحتفظ بأصولها لديه ، إنه يبيع المحرك مثلاً ، ولا يبيع كيفية صنعه ، ولا أسرار تكوينه وحفظه وإدارته ، ومن ثم يبقى المسيطر على سوق المحركات ، يبيع فيها قطع الغيار ووسائل الصيانة ومحلي الخدمة ، وهذا كله في جميع الميادين المدنية والعسكرية .. . أى أننا نركب سيارة أنتجها هو ، ويظل ارتقاينا بها ما بقى يرسل قطع الغيار ويضمن وسائل الصيانة .

وكذلك قد نقاتل في دبابة أو طائرة من صنعه ، لكن قدرتنا على القتال مرهونة بتعهده
أن يمدنا . . . !! .

وفي ميدان الإعلام ترى كل أجهزة الإرسال والاستقبال ، السلكية واللاسلكية
والمواصلات ، وتخزين المعلومات واستخدامها والآلات الحاسبة . . الخ . كل ذلك حكر
للغرب وحده تأخذ منه بقدر ما يأذن ، فإذا طردك عن بابه بقيت صفر اليدين .

أين الصحوة الإسلامية في مظاهر هذا العوز ؟ أين العلم الذي يسعفنا ويقيم لنا صناعة
مستقلة ! ؟ أين العلم الذي يصون عقائدهنا وأدابنا و يجعل يدنا العليا ؟ أين العلم الذي
يُحكم علاقتنا بكتابنا وينقلنا إلى جوء المدود بين الأرض والسماء ؟ أين العلم الذي يقدّرنا
على أن نشير الأرض ونعمرها كما أثارها وعمرها غيرنا ، بل أكثر منه ؟ .

إن العلم الذي يوحى به الدين عند جمهور المسلمين ، شيء آخر قريب من الموت
والاستسلام والضياع ، وذلك هو ذل الأبد . . ! .

وليتأمل القارئ المسلم في هذه القصة التي تحوى ما وقع بين الولايات المتحدة واليابان
عقب انهزام الأخيرة في الحرب العالمية الثانية ، لقد قرر الأميركيون أن يضعوا أيديهم على
الخبرة اليابانية في عالم الالكترونيات ، وأن يوجهوا النشاط الياباني إلى إنتاج أجهزة الإعلام
السمعية والبصرية لتابع ، بأرخص الأسعار على حين يستبقون الأجهزة الدقيقة الأخرى ،
والخبرة العميقية بها حكراً عليهم وحدهم ، كأجهزة الرادار ، والحواسيب الألكترونية
والكمبيوتر ، وما لا نعلم من أدوات عسكرية (!) .

غير أن العلماء اليابانيين فطعوا إلى الخطة الاستعمارية الماكروة وقرروا نقل هذه الصناعة
الرفيعة من طور الاستهلاك العادي إلى طور آخر أرقى وأذكى ، وأن يُحكموا قبضتهم القومية
على جملة هذه العلوم .

ونجحت المنشآت اليابانية ، ولم تعقد لها المزيمة العسكرية اهائلة دون الانطلاق إلى الغاية

المنشودة ، وأمست اليابان من البلاد الألكترونية الأولى في العالم كله .

والعجب أن المركز الألكتروني الأمريكي « سليكون فالى » الذى كانت الولايات المتحدة تريده مهداً هذه الصناعة للقرن الحادى والعشرين أضحت متخلفاً عن المؤسسات اليابانية المعاصرة ، لقد سبق اليابانيون سبقاً بعيداً ، واعترف لهم نظائرهم وأعداؤهم بالتفوق ، ذلك لأنهم ثابروا وصابروا حتى حرقوا ما شاءوا . . . ! .

هل تحس أن الذكاء الياباني وحده وراء هذا النجاح الرائع . . . ؟ كلا ! إن الاستقرار النفسي والاجتماعي في طول البلاد وعرضها كان نعم العون في ذلك المضمار ، لأن الحكومة جسد روحه الشعب ، أو لأن الشعب جسد روحه الحكومة ، لا انشطار في عزم ، ولا اختلاف على هدف ، ولا تحاقد على منصب ! .

أما اليقظة التي عاصرت الصحوة اليابانية في العالم الإسلامي فقد تبدّلت قواها في الصراع الداخلي ، وذهبت جهود هائلة في الدفاع والهجوم والأخذ والرد والإقرار والإنكار ، إذ إن حكومات كثيرة كانت تريد نظاماً علمانياً ، وترفض استدامة الفكر الإسلامي ، وكانت الشعوب وجلةً من هذه الطلائع المتمردة على عقائدها وتقاليدها ، ووّقعت الأمة المسكينة بين « كماليين » يمقتون الإسلام ، وإسلاميين يخلطون الوحي بالخرافة والجحود بالهزل ، وعندما يقع بأس الأمة بينها فهيهات أن تفلح في جلب منفعة أو دفع مضرّة . .

إن اليابانيين لم يخاصموا دينهم - على ما به - ووجهوا قدراتهم كلها لكسب معركة الحياة ، فكسبوها ، أما المسلمون فقد استمكنت منهم الدسائس الصليبية والصهيونية ، وكان التدين في أفكارهم ومسالكهم قد ابْتُلِي بالْعَنْ فغشّيهم من العدو ما غشّيهم ! .

ويشاء الله أن أشعر بالقهر وأنا أخطّ هذه السطور ، لأن الإذاعات المحلية والعالمية تنقل إلى ما يقع الآن قريباً منى في تونس ، إن الذى وقع لم ينطر ببال وكان صدّاه لاذعاً موجعاً . .

لقد استطاع اليهود الجاثمون على صدر فلسطين أن يرسلوا من مكان احتلاهم ثلاثة من الطائرات المقاتلة ، قطعت الآف الأميال في الجو ، وأمدت بالوقود وهي سابحة في السماء ، حتى إذا بلغت تونس تعرّفت على مقر هيئة التحرير الفلسطينية وسط الآف البيوت ، ثم شرعت ترجمة وما حوله بالقذائف حتى أحالته أنفاسا !! .

وبعد أن قامت بها تشاء على خير وجه عادت أدراجها إلى فلسطين قاطعة آلافاً أخرى من الأميال بعد نزهة لطيفة قتلت فيها نحو سبعين عربياً ، وجرحت مثلهم ، هذا كل ما حدث !! .

ولم أشغل نفسي بسماع التعليقات الماجنة والغثة من الأصدقاء والأعداء .

فإن عجزنا لا يحتاج إلى عزاء وقدرة خصمنا لا يغض منها تهوي ، واحتقار مجلس الأمن العالمي لقضاياانا لا ينفع فيه تستر .

وظاهر أن رسوخ عدواننا في علوم الكون والحياة جعله يطوى المسافات الشاسعة ، ويلطمنا كلما أحب ، إن ضراوته بنا كضراوة الصائد الذي يطلق بندقيته على أسراب الطير والأنعام لينال منها ما يشتهي ! .

أما نحن فقد جعلنا الجهل نماذج للعجز ، تُظلم فلا نقتض ونظام فنستكين .

ولا يقيم على ضيم يرادبه إلا الأذلآن غير الحق والوتد !

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشّق فلا يرثى له أحد !

هل نعود إلى بنياننا الحضاري لنعيد إليه رسوخه وشموخه بالعلم الحق والدراسة الناضرة؟ .

إن لغتنا العربية تكاد تكون خالية من علوم الطب والصيدلة والأحياء وأغلب فروع الهندسة والكيمياء وعلوم الفضاء ، والآليات والأليكترونيات ، وفنون القتال في البر والبحر والجو .

أفبهاذا الفراغ نحمى دنيانا ونحرس إيمانا ونرد أعداءنا ونصون حمانا؟؟ .

سمعت من إذاعة لندن خبراً بعثني على الدهشة ، فقد تمخضت الانتخابات التي وقعت أخيراً في ولاية «أثام» عن سقوط الحكومة ، ومجيء حكومة أخرى ! .

الحكومة الجديدة أعضاؤها من طلبة الجامعات !! والحكومة التي ذهبت كانت من حزب المؤتمر الهندي الذي يتولى الأمور في عموم الهند ..

وما حدث يدل بداعه على نزاهة الانتخابات ، وعلى استقرار «الديمقراطية» في القارة الهندية ، ولكنه يدل في الوقت نفسه على أن الجماهير تقترب الغرائب ! والأمر يحتاج إلى شرح يسير ..

إن هذه الولاية تجاور «بنجلاديش» الإسلامية ويفر إليها باستمرار أعداد من المسلمين الذين تطاردهم الفيضانات والعواصف وأنواع المصائب ، وما يكاد هؤلاء المنكوبون يستقررون ويجدون لهم مرتقاً حتى يهجم عليهم أهل الولاية الأصليون ويدررون عليهم رحى الموت ، فإذا المذابح تفتكت بالشيخوخ والأطفال ، وتملاً البيوت بالشكل واليتم ..

وكانت حكومة الولاية تحاول اعتبار أولئك اللاجئين هنوداً عادوا إلى بلادهم وتبذل بعض الجهد لتخفييف أحزانهم ، بيد أن الجماهير الحانقة على المسلمين رفضت هذا المنطق وأبى إلا الفتكت بهم وشن حرب استئصال عليهم ..

الحق أن الاستعمار الصليبي الذي استقر في الهند عدة قرون نجح في زرع البغضاء للإسلام وأهله ، وجعل القومية الهندية تنظر إلى الإسلام على أنه دين فاتح غريب .

وقد استهانات الانجليز في ترجيح كفة الوثنية على عقيدة التوحيد واستغلوا الأضمحلال الفكري الذي أصاب المسلمين في تاريخهم الأخير .. فأفقدوهم مكانتهم الوطيدة في الهند الكبرى .

وعند تقسيم الهند فقد المسلمين مليون قتيل على الأقل .

والاليوم انتخبت الجماهير في «أثام» حكومة من الطلاب الشبان ، وإنى أضع رأسي بين يدى أفكرا فيها تأنى به الأيام ، وما قد يجده من مذابح تحتاج بقية البائسين دون عائق ! .

على أنه يبقى السؤال الذى لابد منه : لماذا لا يصلح المسلمين أحواهم في بنغلاديش ويستغنو عن الرحلات المشئومة إلى أرض المذابح والضيائين ؟ لماذا لا يتغلبون على العواصف والأنواء كما تغلب عليها غيرهم ؟ إن الله سخر الأرض للبشر ، ولم يسخر البشر للأرض ! .

إن الله مكّن بني آدم من البر والبحر ولم يمكن البر والبحر من بني آدم ! إننا نسينا رسالتنا من حيث إننا مسلمون ، ونسينا مكانتنا من حيث إننا بشر متميزون على شتى الأحياء ! .

ما هذا التحجر الفكرى ، والعجز الإنساني ؟ لماذا لا يبني سدودا تنكسر عندها الأمواج ، وتزدهر الأرض وراءها بأنواع الزرع ؟ هكذا فعل غيرنا فما الذي يغلّ أيدينا .

كتب الأستاذ محمد المجنوب هذه الكلمات النفيسة الصادقة تحت عنوان «أما ملأى بنغلاديش آخر ؟ ! » يقول من غرائب الاتفاق أن أستمع في يوم واحد إلى هذين الخبرين : ١- لقد تعاون مد البحر وهبوب الأعاصير على بنغلادش فقضى على الآلاف من سكانها . .

٢- في سجون بريطانية مجموعة من المجرمين ضاقوا بأوقاتهم ، فرأوا أن يشغلوها بعمل نافع ، فقاموا برمد جانب من شاطئ البحر فأحالوه أرضا صالحة للزراعة بلغت مساحة غير يسيرة ، وهم الآن يطالبون المسؤولين بأن يقسموا هذه الأرض بينهم ليتخذوا منها وسيلة إلى العمل الجاد والاستقرار الذي يغير تاريخهم ..

ووجدتني أُطرق بإزاء هذين الخبرين مفكراً متأملاً ، وقد شدّنـى اليـها معاً ما تراءى لـى

من الصلة بينهما ، ففى بنغلادش الفقرة المهددة دائمةً وأبدا بكارثة المد الذى يغتال مساكن الناس ، ويجرف المئات والالاف منهم بين الحين والحين ، تكاد تنحصر المشكلة فى ضيق الأرض التى شاء الله أن تكون أكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان ، ثم بانخفاض مستوى شواطئها إلى الحد الذى يجعلها معرضة لغارات البحر المدمرة كلما تفاعلت أمواجه بالمد والجزر ، وتحت ضغط هذا الواقع يضطر هؤلاء المنكوبون للتسلل إلى ما يجاورهم من أراضى الهند ، فيتقاهم التعصب الهندوسى بأصناف الفواجع التى ليس أقلها الموت بإحراقتهم مع منازلهم .. وفي حين أنهم يتوقعون هذا المصير الختم لا يجدون مفرا من اللجوء إلى ذلك الجانب من الهند بعد أن شحّت عليهم أرضهم بالقوت الذى يمسك الرمق ..

ولم يعد وضع هؤلاء المسلمين المرزئين مما يمكن تجاهله بعد أن شهد ويشهد به كل الزائرين الذين ابتعثوا من دول الخليج للتعليم فى بنغلادش ، حيث يرون تزاحم المسؤولين حيث اتجهوا ، وحتى أن الواحد من هؤلاء المحروميين ليعتبر القرش الذى يضعه المحسن فى يده غنيمة لا يحلم بأكابر منها ..

وطبيعى أن مشكلة كهذه من حقها أن تبعث كل ذى حسّ إنسانى على التفكير والتساؤل عما إذا كانت خارجة عن نطاق الحلول التى يتصورها العقل البشري ، أو أن ثمة تخلفا عقليا وسياسيا هو الذى أبرزها فى هذا الوضع الذى يخيل للناظر أنها فوق الحلول ووراء كل امكانات الاصلاح ..

ومن هنا كانت الصلة بين مأساةآلاف البنغلادشيين ، هؤلاء الذين التهمهم البحر والأعاصير ، وبين عمل أولئك الفتىـان الذين وجدوا ضالتهم فى مصارعة البحر ، فما زالوا به حتى استطاعوا أن يقتطعوا منه تلك البقعة التى فتحت لهم أبواب الأمل فى حياة كريمة ، ولفتت أنظار الناس لاقتفاء أثرهم فى التعامل مع البحر لاكتساب أراضٍ جديدة يضيفونها إلى وطنهم ، ويجدون فيها المجال الرحب لزيادة مكاسبهم ..

* ولم يكن هذا بالأمر الغريب بالنسبة إلى أولئك الأوربيين ، فغير بعيد منهم هولندا ذات الأرض المخضضة ، وقد سبّقهم أهلها إلى مثل ذلك منذ زمن بعيد ، وما يبرّحون يكسبون كل يوم الحديث الجديد من اليابسة ، ينتزعنها من البحر ويقيمون عليها السدود بوجهه ، لتدفع غاراته وليوسعوا بها من ثروتهم الاقتصادية ، التي يغزون بإنساجها أنحاء العالم .

وقد رأيت على شواطئ بومباي - بالهند - صوراً رائعة لهذا الجهد الذي أحال أجزاء غير يسيرة من البحر مناطق رُفعت عليها مئات المباني ، التي بينها ناطحات السحاب ..

ولنتساءل هنا ، لماذا عجزت طاقة المسلمين في بنغلادش عن التفكير بتغيير هذا الواقع الرهيب ، الذي يعيشونه بين الفقر والموت ؟ هؤلاء المساكين الذين يعيشون في الجزر المهمّأة للزوال كلما تصاعدت حركة الموج من حولها .. أليس لهم أيدٍ تحسن العمل فتعاونا لإقامة السواتر الكافية من الحجارة والتراب حماية لأنفسهم من هذه الهجمات التي كلما تقطع عن مساورتهم ليل نهار !! .

وهاتيك الشواطئ المعرضة أبداً لهذا الزحف .. أليس للملايين من سكانها بعض القدرة على مواجهته بمثل ما تواجه به هولندا وبومباي أخطار بحرية ! .

الحق أن الحيرة لستغرقني حين أتصور هذه الواقع ، تُسمّ بملالين المسلمين دون أن يتحركوا للاستعداد لها ومجاهاتها بالتدابير الممكنة المعقوله قبل فوات الأوان .

عندما يفقد المرء حاسة الشّمّ تستوي لديه الروائح الكدرة والروائح العطرة ، وربما أماته غاز خانق يتنفسه وهو لا يدرى حتى يقضي عليه .

وال المسلمين من بضعة قرون تنشر بينهم ثقافات مغشوّشة أحدثت تغييرات جوهرية في صورتهم الباطنة ، وقطعّتهم في الأرض أئمّا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ..

والاختلاف النفسي والذهني لا تصاب به الأمم بعنة ، وإنما يجيء بعد أمراض تطول ولا

تجدد من يحسن مداواتها ، ولا أزال أحسّ أثر هذه الأمراض وراء حلص الهندسي والحسيني والصناعي والحضاري ، إنه تخلّف يعانيه المسلمون في آسيا وأفريقيا على سواء .

والذى يعنينى هو تبرئه الإسلام من هذه التبعة إن الإسلام يحب لآدمه الكسب بعد إدانته
تسعى بها بل يعطيها أجنحة تقدر بها على التحلق

وإنني لأرفض وصف العقل الإسلامي الأول بأنه يكره الخرافية والخيال ، إنما
الوصف يحيط من قيمته ! إنه عقل يبحث عن الحكم ، ويحصن على الانطلاق ، غير مهتم
بأتباوه إلى الصدارة ، لا بالدعوى ولكن بالجذارة .

وإذا كان هناك تبليغ أو توابل أو استرخاء فمصدر ذلك أوضاع حازها **بـIslam** **بـجذره**
إليه جهلة أغرار غشوا علومه وزوروا شعائره وما زلتوا به حتى جعلوا أمره دهر سيره **بـ**
الأمم . . .

لا يزال الإنسان هو العنصر الأول للنجاح في كل ميدان . والآلة تحيى في المقابلة الثانية .
إذا كنا في ساحة صناعية ، وكذلك السلاح يحيى في المقابلة الثانية إذا كنا في ساحة
عسكرية . . .

والإنسان المسلم مفتوح البصر والبصيرة كما علمه كتابه ، يمشي على الأرض مكتينا لا مهينا ، سيداً بين فجاجها لا عبداً ، مخدوماً لا خادماً ، وليس أدرى ما عرانا حتى صرنا نأكل من غراس غيرنا ونلبس من نسيجه ونستورد ما يبدع !! ثم تقدّم لتحول مجلس العزم إلى مجالس جدل ، ولنمضغ قضايا تضر أكثر مما تتفع .. فإذا أُغيّر علينا صرخنا نطلب السلاح ، وهيهات أن يجيء لأنّه من مصانع المغرين ، أو من يمثّل إليهم بـ وشـ الـ صـلات .. !!

إن ٣٠٪ من مسلمي العالم يعيشون في القارة الهندية المترامية الأطراف ، وقد رممت أحواهم الدينية والمدنية وشعرت بالأسى لأنها دون ما ينبغي ، وزادنى شعوراً بالقلق أن جمahir كثيفة بينهم وحولهم تعتنق الشيوعية وتسعى لفرضها بوسائل بارعة فهذا أعدوا للنجاة بأنفسهم ورسالتهم .

وتتشابه مأسى المسلمين في أقطار شتى ، والغريب أن أحد الناس قال لي : إن الإسلام دين وافد على أوربا ، فعداوه تعتمد على أسباب قومية ! قلت له : إن الإسلام والنصرانية جمِيعاً وافدان على أوربا ، وقد كان الرومان وثنين ، وكذلك كانت القبائل القاطنة بشرق أوربا وغريها ، فإذا كان لابد من إشباع التزععات الوطنية فلتعد الوثنية الأولى ، وليعبد الناس الأصنام ! وأحسب ذلك أحظى عند الحاقدين على الإسلام !! .

* * * *

قضية الأخلاق عندنا

هل ترجع هزائمنا العامة إلى أننا لا نملك طائرات بعيدة المدى ، وإلى أننا لا نصنع القنابل الذرية ؟ بعض الناس يتصور أن عجزنا الصناعي والعسكري من وراء تخلفنا هنا وهناك ، وأن أمتنا لو ملكت هذه الأسلحة سادت وقادت ! .

إن هذا فكر سقيم ، والواقع أننا مصابون بشلل عضوي في أجهزتنا الأخلاقية ، وملكاتنا النفسية يعوقنا عن الحراك الصحيح ، وأن مجتمعنا تشبه أحياه انقطع عنها التيار الكهربائي فغرقت في الظلام ، ولابد من إصلاح الخلل الذي حدث كى يسطع التيار مرة أخرى .

وعلاج الأعطاب الشديدة أو الخفيفة بالكلام البليغ أو النصيحة المخلص لا يكفى ! لابد من إزالة أسباب الخلل ، ومن إعادة الأوضاع إلى أسسها السليمة إلى فطرتها الأولى .

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل خلق الله﴾ (١) .

وقد راعى أن خلائق مقبوحة انتشرت بين الناس دون مبالغة ، أو مع إغماض متعمد ، واستمرت مواقعة الناس لها حتى حوالها ألف إلى جزء من الحياة العامة ، ومن هنا رأينا الاستهانة بقيمة الكلمة ، ورأينا قلة الاتكتراث بإنقاذ العمل ، ورأينا إضاعة الأمانات والمسؤوليات الثقيلة ، ورأينا القدرة على قلب الحقائق ، وجعل الجهل علماً والعلم جهلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً .

(١) الآية : ٣٠ من سورة الروم .

إن قضية الأخلاق وما عرّاه من وهن أمر جلل ، إنك لا تستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد ، ولا تستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة وجملة من الأخلاقيات تورث الثقة ، وتأمل في قول أبي تمام :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرداً إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمَرْ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ !

إن ضئالات الخلق الصلب في سيرة هذا البطل هي التي تعلو بها الأمم ، وتنتصر الرسالات . وهي التي يستخدمي أمامها العدو وتنهار الطواغيت ، وعندما ترى مجتمعًا صارما في مراقبة النظام ، دقيقا في احترام الوقت ، صريحا في مواجهة الخطأ ، شديد الإحساس بحق الآخرين ، غيورا على كرامة الأمة ، كثيرا عند الفزع ، قليلا عند الطمع ، مؤثرا في إرضاء الله على إرضاء الناس ، عندما ترى هذا الخلال تلتقي في مجتمع ما ، ثق أنه يأخذ طريقه صعدا إلى القمة .

وقد كان المسلمون الأوائل نماذج أخلاقية تجسّد فيها الشرف والصدق والطهر والتجدد ، ولذلك تصدروا القافلة البشرية عن جدارة ، ولا غرو كانوا صنعوا الإنسان الذي وصفه الله بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وكانوا نُصح روحه العالى فمشت وراءهم الشعوب تتعلم وتنأسى .

أما اليوم فنحن نجري ونلهث وراء الشعوب الأخرى دون أن نصل إلى مستواها ، لأن وزن الأخلاق عندنا خفيف وارتباطنا بها ضعيف ..

والأخلاق مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيي بها الأمم كما تحيي الأجسام بأجهزتها وغدها ، فإذا اعتلت هذه المجموعات وانفككت رأيت ما لا يُسر في مسالك العامة والخاصة ..

ففي كثير من البلاد الإسلامية رأيت الوساخة في الطرق والبيوت أو في الملابس والأبدان ، ورأيت الفوضى في سير الأشخاص والعربات ، ورأيت الإهمال والتهاون في تناول

(١) الآية : ٤ من سورة القلم .

السلع والواجبات ، ورأيت دوران الناس حول مأربهم الذاتية ونسائهم المبادئ الجامدة والحقوق العامة ، ورأيت انتشار اللغو والكسل وفناء الأعمار في لا شيء !! .

الكذب في الموعيد وفي رواية الأخبار ، وفي وصف الآخرين أمر سهل ! وكذلك استقصاء الإنسان في طلب ما يرى أنه له ، واستهانته في أداء ما هو عليه ، ونقصه ما هو قادر على إتمامه ، وقد ان الرفق في القول والعمل وشيوخ القسوة والبالغة في الخصم ! .

ثم تحول الآداب إلى قشور يطُلُّ من ورائها الرياء بل إن الرياء - وهو في الإسلام شرك - يكاد يكون المسيطر على العلاقات الاجتماعية ، وهو الباعث الأول على البدخ في الأحفال والولائم والمظاهر المفروضة في الأفراح والآحزان ..

العجز الإداري قد يرجع إلى أسباب خلقية وعلمية ، بيد أن الأسباب الأخلاقية عندنا أسبق .

الفشل العسكري قد يرجع إلى أسباب نفسية وفنية وصناعية ، بيد أن الأسباب النفسية عند العرب أظهر وأقوى ..

ويجزم أولو الألباب بأن الساسة العرب والقادة العرب وراء كل نصر أحرزه بنو إسرائيل خلال أربعين سنة .

بل إن قادة اليهود صرّحوا بأن المكاسب التي أحرزوها تجاوزت الأحلام وسبقت الخيال ! إنهم ما خططوا لها ولا احتالوا على بلوغها ! إنها هدية من الانحلال العربي ومن ضعف الأخلاق ، إنها غنيمة باردة لخصوم يحسنون انتهاز الفرص ! .

وأى فرصة أغلى من أن يكون القائد العربي صريع مخدرات ومسكرات ، وأن يكون الرعيم العربي قد وصل إلى منصبه فوق تلّ من جماجم خصومه ، ورفات بنى جنسه المدحورين أمامه .

إن هذه أعظم فرصة لقيام دولة إسرائيل ، لقد قامت في الفراغ المتخلّف من ضياع

الأخلاق لدينا ، وتحول المسلمين إلى أمم مقطعة ، خربة الأفئدة ، مخلدة إلى الأرض ،
جياشة الأهواء ، باردة الأنفاس . . .

إننا نقول لغيرنا : النار مصير الملاحدة والمرشكين ، لسوف يجرون ما يستحقون لقاء
كفرهم بالله ونسائهم له ! .

ليت شعرى لماذا لا نقول لأنفسنا : والنار كذلك مشوى المرائين الذين عموا عن وجه
الله ، وأرادوا الحياة الدنيا وزيتها ، واستهتوا في طلب الشهرة والسمعة والمال والجاه ،
وكان علاقتهم بهذه الأهواء أشد من علاقة المرشكين بأوثانهم ؟ ؟

لماذا لم نقل لأنفسنا : إن أول من تُسْعَر بهم النار ، رجال دين يطلبون الدنيا ، ورجال
مال وحرب ينشدون الوجاهة والسلطان ؟ ألم يقل لنا نبينا ﷺ ذلك ؟ .

إنى طفت في أقطار إسلامية كثيرة ، فرأيت سطوة العرف أقوى من سطوة الشرع ،
وابطاع الموى أهم من اتباع العقل ! .

وللناس قدرة عجيبة في إلباس شهواتهم ثوب الدين ، وتحقيق مآربهم الشخصية باسم
الله . .

وأذكر أنى كنت في شبابي الباكر أغشى بيت تاجر أرمنى كى أدرس اللغة العربية لأحد
أولاده ، وكانت الأم ترقب ابنها وتذكره بما أفرضه عليه من واجبات . .

وخلال سنة لاحظت أن هذه الأم ، لا ترتدى إلا ثوبين أو ثلاثة من نوع رخيص ولكنه
نظيف وأنيق ، وكثيراً ما كانت تعين زوجها في دكانه وهى على هذه الحال من قلة التكلف
وتواضع الملابس . . على حين كنت أرى الأسر الإسلامية في دنيا أخرى ! ما تكتفى المرأة
إلا بالعشرات من الثياب الغالية . .

ورأيت عرس يهودي يبني بزوجته - قبل قيام دولة إسرائيل - فلم أر ما يثير الانتباه ،
وتذكرت وصف حافظ إبراهيم لعرس عربى :
سال فيه النصارى حتى حسبنا أن ذاك الفنان يجرى نصارا !

قلت : ماذا تفعل أمتنا بنفسها ؟ وإلى أين تسير ؟ وما تلك الأخلاق والتقاليد التي تحكمها ؟ .

اتصلت بي فتاة في أواخر شهر رمضان عن طريق الهاتف ، وقالت : نحن نسمع دروسك ، وربما كان لها أثر حسن ، أرجوك أن تنصح الآباء ألا يغسلوا بناتهم ، إن أبي رد ثلاثة من الخطاب أتوا يطلبونني ، والسن تتأخر بي ! قلت : لعل في دينهم ، أو مروءتهم ما يصرف النظر عنهم ! قالت الفتاة في يأس : إن الإيمان والأخلاق آخر شيء ينظر إليه ! المهم المال والجاه ! المهم الحسب والنسب ! .

ودرست أوضاع الزواج في أغلب البلاد الإسلامية ، فوجدت النفاق الاجتماعي يهيمن على السلوك : كم سيدفع لشراء الخل والملابس كم سيدفع لإقامة الأحفال والولائم ؟ كم سيدفع لتقديم الهدايا واقتناء الأثاث العصري ؟ .

ثم هذا العريس المتقدم من أي قبائل ؟ إذا لم يكن من الحزب النازي فلن يصلح لفتاتنا ، ولو كان مخترع الأقمار الصناعية . . .

الواقع أن أولى الألباب يحارون في فهم شبكة التقاليد التي تسود عالمنا الإسلامي ! وهم يوقنون بأنها بعيدة عن تقوى الله ، ورعاية المصالح . . .

إن الجماهير تغض النظر عمداً عن مسالك للشباب قبل الزواج تذبح فيها أعراض ، وتبيّد فضائل ، إلى أن يتيسر الزواج وفق الموصفات التي وضعها الشيطان ! .

وعندما تكون الرذيلة جزءاً لابد منه في الحياة الاجتماعية ففداء على الدين ، إنه سيكون عنواناً لا مفهوم له ، أو اسمها لا حقيقة له ، ولا معنى للمسجد بجوار ما خور ! .

إنني أتأذى عندما تزور الانتخابات في بلدٍ ما ، لا لأن نفراً من الشطار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها - وهذا وحده جريمة - بل مصدر الأذى مرور الكذب في هدوء ، واستقرار شهادة الزور دون اكتراث ، ويألف الكبار والصغار أن تطمس الحقيقة دون نكير ! .

· أَمْمَةٌ لَمْ يَهْدِهُمْ الْخَلَقُ حَدِيرَةٌ بِالْمَوْتِ . . . !

· عَرِفَهُ مِنْ تَعَالَيمِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ سِيرَةِ رَجَالِهِ ، أَنَّ الدِّينَ وَالْخُلُقَ قَرْنَاءُ جَمِيعًا ، وَأَنَّهُ إِذَا صَحَّ الْإِيمَانُ . وَصَحَّتِ الْعِبَادَاتُ الَّتِي فُرِضَتْ مَعَهُ ، ازْدَهَرَتِ الْفَضَائِلُ وَتَعَالَمُ النَّاسُ بِشَرِفِ وَنَبِيلٍ وَتَرَاحِمٍ وَتَسَامِحٍ ، وَاسْتَخْفَى الْغَدَرُ وَالْخَبْثُ وَالشَّرُّ وَالْزُّورُ . . . الْخَ .

لَقَدْ وَرَثَنَا شَرْوَةً كَبِيرَةً مِنَ الْآدَابِ الْنُّفُسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، يَتَدَبَّرُهَا الْمَرءُ فَيَتَسَاءَلُ : إِلَى أَيِّ أَفْقَ مِنَ الْكَهْنَاتِ وَالسِّنَاءِ تَرْفَعُنَا هَذِهِ النِّصْوَصُ لَوْ أَنَا اعْتَصَمْنَا بِهَا وَحَوْلَنَاها إِلَى مَسَالِكَ حَيَّةٌ؟ .

خَذْ هَذِهِ النَّهَادِجَ السَّرِيعَةَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الْفَحْشَ وَالْتَّفْحُشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ . وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا » !

وَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِي عَطَى عَلَى الرَّفِقِ مَا لَا يَعْطِي عَلَى الْخَرْقِ ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفِقَ . مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَحْرُمُونَ الرَّفِقَ إِلَّا حُرَمَوْا الْخَيْرَ » .

وَقَالَ : « تَبَسَّمْكَ فِي وِجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدْقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهِيكَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدْقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْأَذَى وَالشُّوْكُ وَالْعَظَمُ عَنِ الْطَّرِيقِ لَكَ صَدْقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوَكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدْقَةٌ وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدْقَةٌ » .

وَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تَؤْمِنُوا ، وَلَا تَؤْمِنُوا حَتَّى تَحَبُّوْا » .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مُفْسِرًا قَوْلَهُ تَعَالَى : « ادْفِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنٌ » ^(١) الصَّبْرُ عَنِ الْغَضَبِ وَالْعَفْوُ عَنِ الْإِسَاعَةِ إِذَا فَعَلُوا - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - عَصَمُهُمُ اللَّهُ وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوْهُمْ . . ! . وَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ كَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَفَقَ رَجُلٌ نَعْسٌ - وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ ،

(١) الآية ٣٤ مِنْ سُورَةِ فَضْلَتْ .

فأخذ رجل سهماً من كنانته فانتبه الرجل فزعاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً .

وقال رسول الله لاصحابه : تدرؤن أربى الربا عند الله؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ! ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يَؤذنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِغَيْرِ مَا اكتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهَتَانٍ وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١) .

وعن أبي كثیر السعید عن أبيه قال : سألت أبا ذر فقلت : دلّى على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة ! قال أبو ذر سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : يؤمّن بالله واليوم الآخر ، فقلت : يا رسول الله ، إن مع الإيمان عملاً ، قال : يرضخ - يعطى ما رزقه الله ، قال : أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ منه؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ! قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن كان عيّناً لا يستطيع أن يأمر أو ينهى؟ قال : يصنع لآخر ! قال : أرأيت إن كان أخلاقاً - عاجزاً - لا يستطيع أن يصنع شيئاً؟ قال : يعين مغلوباً ! قال : أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مغلوباً؟ قال الرسول : ما تريده أن يكون في صاحبك من خير؟ يمسك عن أذى الناس ! قلت : يا رسول الله ! إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال : ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة ! .

تأمل في هذا الاستقصاء ! وتأمل في أن خلال الخير هي التي تقود الرجل من يده فتدخله الجنة ! .

إن السلبية لا تزكي فرداً ولا جماعة ، والأمة التي تدور حول ماربها وحسب ، لا تزيد عن أعدادها من الدواب في الحقول ، أو الوحوش في الغابات ..

وهناك رذائل تتجاوز مقتفيها ويمتد أذاتها إلى آماد بعيدة ، فالغش في الامتحانات أو

(١) الآية ٥٨ من سورة الأحزاب .

السلع أو المباني أو رصف الطرق ، أو غير ذلك من شئون الناس خاصة أو عامة ، رذيلة مدمرة للتائج ، وقد نفى النبي عليه الصلاة والسلام صاحبها من جماعة المسلمين « من غشنا فليس منا » (١) .

والواقع أن فشل الغش في مجتمعنا ، قوله في المجتمعات أخرى هد ركنا وأضعف قوانا وزعن الثقة فينا ! .

وبعض الجامعات الكبرى ترفض الإجازات العلمية الممنوحة من بعض معاهدنا لأنها لا تطمئن إلى قيمتها ، كما أن بعض المستهلكين يرفضون السلع التي نصنعها لأنها لا يطمئن إلى جودتها ! أفيشرنا هذا الوضع ؟ .

وكما نفى النبي ﷺ أن يكون الغشاشون من الأمة نفى أن يكون المابطون بأقدار الكبار ، الحاددون لمكانة العلماء من الأمة « ليس منا من لم يوقر كبارنا ويرحم صغارنا ويعرف لعلنا حقه » .

والحق أن فوافع رهيبة أصابت المسلمين بسبب غمط الأذكياء وتقديم الأغبياء ، والعرب يرجحون عصبية الوطن والنسب على الكفاءة العلمية والأدارية ، والمستبدون من الحكام يقدمون مشاعر الزلفى والملق على القدرة الرائعة والخبرة الواسعة .

وقد كنت أوازن بين قادة الشيوعية والصليبية من ناحية وقادة المسلمين من ناحية أخرى فأأشعر بغضّة ، القوم يقدمون أعظم من لديهم ونحن نقدم ما تيسر . . . ! .

والأخلاق ليست شيئاً يكتسب بالقراءة والكتابة أو الخطابة والدعائية إنها درجة تكتسب بالمعاناة الشديدة ، كيف تنتقل من أدنى إلى أعلى ؟ كيف تنتقل من الطراوة إلى الصلاة ؟ والمرء في هذا الميدان يصنع نفسه ، وهو أدرى الناس بها يشينه من كسل أو بخل أو

(١) رواه مسلم .

الغوف . . الخ ، فيرسم طريق الشفاء ومراحل الخلاص ، ولا يزال يتبع السير ، ويغالب العقبات حتى يبرأ من عللته . .

على أن للجماعة الإنسانية دخلاً كبيراً في إدراك هذا النجاح ، وقد علمنا أن هناك بीئات تنبت الذل وأخرى تنبت العز ، وبيئات تنبت التواصيل والتعاون وأخرى تنبت التحاقد والتحاسد .

وكان في الامكان أن تتألف جماعات أو مدارس أو طرق لهذه الترذكرة المنشودة ، ييد أن رجال الطرق لدينا اعتمدوا على أوراد وبدع لا خير فيها ، وفقدوا المقدرة العلمية والعملية على التسامي بأنفسهم وبالأجيال ، فأساءوا ولم يحسنوا ، ومن هنا لم تجد الأخلاق التربة التي تزكي فيها وترثي .. وعاش الناس وفق ما أتيح لهم من طبائع وتقاليد ..

وكم كنت أودّ لو وجد الأستاذ المخلص الذى يتعهد الناشئة ويبصر ميوهم ومسالكهم،
فيقوم ما اعوج بأناة ، ويصلح الأخطاء بمحبة ، ويحل العقد النفسية وينشط الملكات
الذكية ولا يزال يصحبها بتوجيهاته حتى يخلق من الأطفال الصغار أبطالاً كباراً ، كل
يمضى حسب قدراته ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾^(١).

وعصرنا لا يسمح بوجود هذا الأستاذ ، لأنه أودى جذوة التنافس بين الناس ، وبعُض كل امرئ وضعه ، فهو لا يبقى فيه إلا ريشاً يتتحول عنه إلى منصب أعلى .

ويغلب أن يتقلل هذا الأستاذ من منصبه العلمي إلى منصب اداري أحظى لدى الناس ، فلا يبقى في ميدان التربية الحقيقة إلا من فاتته القافلة وأكرهته الأيام على المقاء .. !

والأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها ، وتحاكم إلى منطقها ، وربما اختلفت تقاليد وأحكام ، لكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله في الفطر من تحسين الحسن وتنبيح القبيح ..

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

ونحن نعلم من ديننا أن من أركان النفاق الكذب في الحديث ، والخلف في الموعيد ، والخيانة في الأمانات ، والغدر في العهود ، والتجور في الخصومات .. والناس في المشارق والمغارب ما ينكرون شيئاً من هذا ، وما يحترمون كاذباً ولا غادراً .. إلا أننا نلتف الأنظار إلى حقيقة لها خطرها ، إن الأخلاق في أرضنا تتصل اتصالاً وثيقاً بالإيمان ، فإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص ، ونجم الإثم ، واضطربت الأمة كلها .

وقد أصابنا الاستعمار العالمي في صميمنا عندما أوهى الإسلام واستبعد إيحاءه في الحياة العامة ، لقد تبع ذلك انهيار خلقى محزن ، وميوعة لا تستقر فيها على شيء ! .

ربما كانت للقوميات الأخرى فلسفات تهالك بها ، أما في دار الإسلام فإنه مع استبعاد الإيمان ومواثيقه وشعائره انحلت الأفراد والجماعات على نحو لم تعرفه بلاد أخرى ، وتبجّحت الخيانة ، وفجر الأقوياء ، ولصق الضعاف بالخبيث ، وصار طلب الخبز النداء الأول ! وارتضى الكثيرون أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب .. ! .

ولكى يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئدة ، وأن تألف الجماهير الصلاة ، وأن تتصرّف الفضائل على الشهوات ، وألا يُحترم كذوبٌ أو يتقدم مفترط . وأرى أن يتم تصنيف الأخلاق وفق مقتضيات العصر ، فهناك أخلاق تُشرح بدقة في التعامل بين الحكام والجماهير ، وأخرى بين الجنسين في شتى الميادين ، وأخرى بين العمال وأصحاب العمل ، أو بينهم وبين العمل نفسه .. وفي الإسلام مدد لا يغيب لهذه الغايات كلها .

في عالم المرويات

قرأت هذه الرواية المنسوبة إلى الشعبي - وهو من التابعين - وضفت بها ضيقاً شديداً .
و قبل أن أنقلها أفت الأنظار إلى تفاهة نفر من الناس يعيشون داخل قوقة من أهوائهم
ثم يحاولون عقد صلح بين الدين الحنيف وأهوائهم الشاذة ! .

هذا امرؤ مصاب بجنون العظمة ، تقول الرواية : إنه قصد الكعبة طالباً من الله أن
يمتحنه ملك العالم الإسلامي ، فإذا خرج عليه أحدٌ أمكنه الله من ضرب عنقه (!) أى
دعاء هذا ؟ .

وهذا امرؤ آخر متواضع يطلب ملك العراق فقط ، بيد أنه يضم إلى هذا الطلب الزواج
من امرأة بعينها ، سمتها الرواية ! .

لم أشك في أن الرواية مكذوبة ، وأن الشعبي أعقل من أن ينقل هذا الهراء لكن الذي
أهمني هو سوء تصور بعض الناس لحقائق الدين ومراميه ، فليس الدين كبتاً للشهوات
الجاححة ، وليس رفعاً لمستوى النفس ، وليس نشداناً للأخرة ، بل هو جراءة على الوقوف
بين يدي الله لطلب ما لا يليق منه - سبحانه وتعالى . . ! .

والغريب أن القصة تنتهي بدعاء من الصحابي الكريم عبد الله بن عمر ، فإنه لما رأى
أولئك النفر يسألون الله الدنيا ومتاعها ذهب هو إلى الكعبة وطلب من الله الجنة .

قال الراوى : فبشره الله بإجابة سؤله ! كيف بشره ؟ سلبه بصره ! ومن صبر على العمى
دخل الجنة !! .

ولأنقل انزهية بعد هذه التقدمة . . . فهى نموذج لتفكير أقوام يعيشون في عالم المرويات التي لا يضبطها فقه ولا وعى . . .

نقل ابن ظهيرة عن الشعبي أنه قال : رأيت عجباً كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وعبد الملك بن مروان فقالوا بعد أن فرغوا من حديثهم ليقام رجل بعد رجل فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله تعالى حاجته فإنه يعطى من سعة ، ثم قالوا لعبد الله قم أولاً فإنك أول مولود في الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لك كل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نيك بِيَتِهِ أن لا تحيطني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم على بالخلافة وجاء وجلس ، ثم قام أخيه مصعب فأخذ الركن اليماني فقال : اللهم إنك رب كل شيء وإليك كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تحيطني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين وجاء وجلس ، ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني وقال : اللهم رب السموات السبع والأرض ذات النبات بعد القفر ، أسألك بما سألك عبادك المطعون لأمرك وأسألك بحرمة وجهك ، وأسألك بحقك على جميع خلقك وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تحيطني حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينazuنى أحد إلا أتيت برأسه ثم جاء وجلس .

ثم قام عبد الله بن عمر حتى أخذ بالركن ثم قال : الله يا رحمن يا رحيم أسألك برحمتك التي سبقت غضبك ، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تحيطني من الدنيا حتى توجب لي الجنة .

قال الشعبي فرأيت كل واحد وقد أعطى ما سأله وبشر عبد الله بالجنة ، قال ابن ظهيرة : ولسائل أن يقول : ما الدليل على وجه البشري ؟ .

والجواب من وجهين :

الأول : أن ابن عمر كان قد كُفَّ بصره بعد ذلك وقد وعد النبي بِيَتِهِ « من اتلى بذلك بالجنة » - كما في صحيح البخاري .

والثاني : أن الثلاثة لما أعطوا ما سألهوا كان ذلك أدلّ على إجابة دعاء الجميع إذ هو اللائق بكرم الله وسعة عطائه ، وكان سيدنا ابن عمر من الورع والزهد والصلاح بالمكانة التي لا تتجهل كما في مناقبه (كذا في الجامع اللطيف ٤٢) .

عندما قرأت هذه الحكاية منسوبة لمحدث فقيه قلت : كيف لم يشعر التابعى الجليل بما في هذا الدعاء من نُكُر ؟ أيجوز أن يكون عبد الله بن الزبير طالب ملك قاتل دونه ومات في سبيله ؟ .

ألا يعرف عبد الله أن سؤال الإمارة لا يجوز ، وأن طالبها لا يُؤْلَى وإذا رفضت أن ينسب هذا المسلك لعبد الله ، ورفضت أن ينسب مثله إلى أخيه الشجاع مصعب ، فهل يجوز أن يطلب عبد الملك أن يمكنه الله من قتل الذين يشغبون على سلطانه الفذ ؟ .
أهذه عبادة الله ! فما عبادة النفس إذن ؟ .

وأنتقل إلى موقف الرجل العابد المجاهد عبد الله بن عمر الذي شهد مع رسول الله ﷺ معاركه الوثنية ، وبقى طيلة عهد الخلافة صواماً قواماً منكراً لذاته مبتعداً عن الفتنة مستغرقاً في طلب الآخرة ! .

أينسى هذا الماضي الوضىء كله ، ولا يستحق به شيئاً حتى إذا فقد بصره قيل : هذا بشير الجنة ؟ .

أعرف الحديث القدسى الصحيح «إذا ابتليت عبدى بحسيبته فصبر عوضته عنها الجنة» . وفسر النبي ﷺ حسيبته بعينيه .

وتصير الإنسان على ما أصابه هو من عزائم الدين ! والرضا بقضاء الله طريق لا ريب فيه إلى الجنة . . .

ولكنا نحفظ أن رسول الله ﷺ كان يستعذ بالله من سيئ الأسماء والأوجاع ، ومن أدعية : «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحیتنا ، واجعله الوارث منا؟» .

أى لا تحرمنا من هذه الحواس ما بقينا فلا تفارقنا ما دمنا على ظهر الأرض .

ترثنا بعد أن نفارق نحن الحياة ولا نرثها ونحن أحيا ..

هذه طبيعة البشر ، وفطرة الله في الأنفس ، فليس يستحب أحد لنفسه فقد سمع ولا بصر ، ولا بشرى في هذا ! فإذا أصيّب كما أصيّب يعقوب صلوات الله عليه صبر واحتساب وتعلق بثواب الآخرة !

لكن ناصل الرواية التي أثبّتناها هنا كان من ضيق الفقه بحيث ذهل عن ماضى ابن عمر الظاهر ، وقال : مادام الله قد عجل الإجابة لطلاب الملك والنساء ، فالإجابة المعلقة لابن عمر أن يفقد بصره ليدخل الجنة .. !

ويؤسفنا أن كثيراً من النقلة للأخبار مبتلؤن بهذا التصور العقلى ، وذلك ما جعلنى أقول في كتاب آخر : لا سنة من غير فقه !

وعالم المرويات واسع الأرجاء ، ونحن نستقبله كل صباح عندما نقرأ الصحف التي تصدر كل يوم ، أليست تروى لنا أنباء ما يقع في الدنيا ؟ وهذه الصحف الناقلة للأخبار أنواع ، منها ما هو جاد دقيق نثق في مصادره ونستريح إلى تعلقاته ، ومنها ما هو معروف بالتهويل والاثارة نأخذ الحقائق منه بقدر ..

وإذا كانت الصحافة والإذاعة ترويان ما يقع الآن فإن التاريخ السياسي والأدبى يروى لنا ما وقع في الماضي القريب والبعيد ..

والماضى سند الحاضر ، وكثير من التيارات المعاصرة تنبجس من الأيام الخالية ! ونحن نقرر ذلك لندرك أن التعامل مع عالم المرويات لا يحيص عنه ، ولا عيب فيه ..

إنما يكمن العيب في تلقى الأخبار دون تحيص ، وفي قبول الروايات دون روأة ، والأمم ذات الأديان تعتمد في إيمانها وسلوكها على ما آل إليها من تراث ، ولسنا - نحن المسلمين - بداع في الاستقاء من الوحي الذى نزل ، استفتاؤه في أمور كثيرة .

ومن الواجب أن نعرف كيف تلقينا ما جاءنا ، فما كنا ، ولن نكون ، أتباع أوهام ! إننا

نصدق ما لا يكذبه عاقل ! ولدينا من مقاييس النقد مالا يعرفه الآخرون ..

ولنذكر بادئ ذى بدء أن القرآن الكريم أساسنا ، وهو كتاب ثابت ثبوت السماوات والأرض والليل والنهار، وحوله سياج من التواتر جعله محفوفاً باليقين من جهاته كلها . . . والكتاب تحفظه عن ظهر قلب جماهير من المؤمنين وهو معروض على أولى الألباب في كل آن يتذربونه ويتساءلون عما يعنُ لهم فيه ..

ونحن المسلمين نرى في القرآن الكريم جميع الحقائق التي كلف المرسلون الأوائل بتبليغها ، وأنه إلى آخر الدهر مجمع العقائد والشائع التي تكفل للناس اهدي والاستقامة ، وأنه مصون من التزيّد والتحريف اللذين تعرضت لها كتب أخرى ، وأنه يمكن القول الجازم بأن الوحي الآلهي للناس أجمعين ، في القارات كلها قد استقر في هذا الكتاب وحده .

ونجيء بعد ذلك إلى سنة محمد خاتم النبيين لనقول : إن ما تواتر منها واشتهر وصح جدير بالثقة ، وأنه امتداد للقرآن يمشي في سناه ولا يزيغ عنه !! .

والواقع أن علماءنا الأقدمين وضعوا لقبول المرويات ضوابط يتأملها العقل العادى ، فيستريح إليها ، وقد قلت : إن هذه الضوابط لو عرضت على الماديين أنفسهم ما لا حظوا عليها مأخذًا .

وما نستطيع أن نجد ضمانتين أخرى فوق الضمانات التي اشترطوها لمنع الأخطاء عن النقول المروية . . .

ولا نقبل من أحد أن يقول : نرفض كل هذه المرويات لأن الوهم قد يتسرّب إليها ، لأننا لا نقبل من أحد أن يقول : نرفض التاريخ كله لأن التاريخ يغلب أن يكتبه المنتصر ، ولا نقبل من أحد أن يقول : أرفض قراءة الصحف لأنها قد تروي الشائعات .

أقرأ وأنقد وأزن وأرجح وأبحث عن الحق ما استطعت وأتجزّد من الهوى ، فهذا هو النهج ! .

وعلماًؤنا الأقدمون مشوا في هذا الطريق ، والأمة الإسلامية في تاريخها الأول كانت أمة حقائق لا أوهام ، ولم تكن للخرافات أسواق رائجة كما يحدث الآن . . .
كان للفقه علماؤه ، وكان للحديث علماؤه ، وربما ذهل الآخرون في شيء فيستدرك عليهم الأولون ، وقد يكون العكس ، وإن كان تاريخنا العلمي قد جعل الفقهاء أصحاب القيادة وجعل الجماهير تتبع مذاهبهم عن اجتهاد طوراً وعن تقليد أغلب الأحيان . . .
والذى نلحظه آسفين أن كثيراً من جامعى السنن قد تساهلوا في قبول أسانيد ضعيفة ،
وأن هذا التساهل زحم ميدان السنة بآثار ما كان ينبغي أن تذكر . . .

وإذا كان من شرط الحديث الصحيح أن يخلو من الشذوذ والعلة القادحة فإن كثيرين
نقلوا ما خالفوا به الثقات ، ونقلوا ما به عللٌ تُرْدُه ! ومع ذلك سطّروا وحّبّروا ، وتركوا
للأئمّة ما عكر المجرى ، وبلبل الفكر .

إن رجالاً جليلاً كالبخاري ترك أحاديث كثيرة مرت به فلم يرها أهلاً للتداوين ، ومن هنا لم يجمع في صحيحه إلا ألفين وبضع مئات من السنن . . .
على حين جمع غيره الآف والأفاف من الآثار تحتاج في غربلتها - حسب مقاييس علمائنا - إلى

ولاذكر مثلاً واحداً للبلاء الذي أصاب الجماعة الإسلامية من تسجيل الأحاديث
الضعيفة وتركها تشغب على معالم الدين ، ومعاقده !
من تلاوتنا للقرآن الكريم نعي أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعاً ، وملكتنا
إياباً . . .

أَلْسِنَا جَزْءًا مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ .

﴿ . . . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جمِيعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم

• (١) تفکرون

(١) الآية ١٣ من سورة الحجّة .

وصاحب هذه الامكانيات المتاحة ممكّل أن يتصرف فيها بما يرضي الله ، كما تصرف سليمان في نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ثم قال : ﴿هذا من فضل ربي ليلونى أأشكر أم أكفر﴾^(١) .

هل يقبل من أحد أن يستقبل من هذه الوظيفة ، ويحيا صفر الدين ، ويفرّ من أعباء التكليف ، ويقول : أنا زاهد في الدنيا . . . !! .

وما مستقبل الإيمان ودولته على ظهر الأرض إذا كان الأتباع جماهير غفيرة من أولئك المستقiliين الهاريين ؟؟ .

إن أعداداً كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة آثر الفقر على الغنى ، ودعا إلى قلة ذات اليد ، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمة الإسلامية من عدة قرون ، وجعلوها لا تحسن إدارة مفتاح في خزائن الأرض ! الأمر لا يستحق هذا العناء !! .

فلننظر : هل جاء في سنة صاحب الرسالة تحذير للغنى وتأخير لأصحابه وذم لأنشطتهم؟ .

في السنة الصحيحة لا يوجد شيء من ذلك ! بل الذي رواه البخاري « لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلّمها ». .

والأحاديث كثيرة في توكييد هذه القاعدة الاجتماعية الرشيدة ، فالعالم الأول في عصتنا يقوم على المال والعلم ، والعالم الثالث يقوم على الفقر ، والجهل البسيط أو المركب !! . ومع ذلك فقد روى نقلة السنن عشرات الأحاديث تحت عنوان « الترغيب في الفقر وقلة ذات اليد وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين . . » .

وقد ساءنى في إحدى المحاضرات أن المتحدث - هو من العلماء المرموقين عمر عبد الرحمن بن عوف ، ، ناقلاً حديثاً نبوياً يفيد أن عبد الرحمن - لكترة ماله لا يدخل الجنة إلا

(١) الآية ٤٠ من سورة التمل .

حبوا - قلت له : هذه الأحاديث وأشباهها معلولة لا يجوز أن تروى ! .
وأنا وفق القواعد القرآنية والنصوص القاطعة أرفض هذا الحكم . . أليس يقول الله في
عبد الرحمن وأشباهه ﴿لَا يُسْتُوِي مِنْكُمْ مَنْ قَبْلَ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرْجَةً
مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا . . .﴾^(١)

وعبد الرحمن أسلم يوم كان المسلمين يُعذَّبون على أصابع اليد . . ومنذ أسلم سخر نفسه
عِمَالَهُ لَهُ ، فهل جريمته أنه صاحب مال سلطه الله على هلكته في الحق ؟ أذلَّكَ الَّذِي يُؤْخِرُ
مَكَانَتَهُ وَيَصْعُبُ درجَتَهُ ؟ .

إن علماءنا قالوا بوضوح في علم الأحاديث : إذا خالف الثقة الأوثق فحديثه شاذ ، فإذا
كان المخالف ليس ثقة فحديثه منكر أو متردِّك ! لماذا لم تطبق القواعد العلمية الموضوقة
المحترمة على هذا السبيل من الروايات التي ضارت مجتمعنا وأوهنت قواعده . . ؟ .

لقد رأيت الأمة الإسلامية محكومة بجملة من الأحاديث المتروكة والمنكراة والشاذة !
ورأيت هذه الأحاديث تطرد أمامها المتواتر المشهور والصحيح ! كما تطرد العملة المزيفة
العملة الصحيحة ! .

ولا أدرى كيف استطاعت هذه الأحاديث تنويم حملتها . . ولا أزال أتعجب كيف أن
رجالاً من أساطير المحدثين كابن حجر يعترف بحديث الغرانيق وهو أكذوبة غليظة ، وإن
كان يضعفه ، لكنه يرى له أصلاً ، أى أصل غفر الله لك ؟ .

وكذلك فعل مع حديث «أَفَعَمِيَّا وَأَنِّي أَنْتَمَا ؟» مع أن الروايات الصحيحة في البخاري
ومسلم ترده ، وتجعله حديثاً لا وزن له . . . ورأيت ابن كثير يروي حديثاً أن سورة الأحزاب
كانت في طول سورة البقرة (!) وأن النسخ عرض لأكثرها فبقى منها ما بين أيدينا ! قلت
أينزل الله وحيه في نحو ثلاثين صفحة ثم يمحو منه ثلاثة وأربعين أو أربعين

(١) الآية : ١٠ من سورة الحديد .

وعشرين صفحة ويدع الباقي ؟ إذا لم يكن هذا الكلام علة تقدح في الحديث فما تكون العلل القادحة ؟ هذا حديث لا يساوى المداد الذي كتب به .

والأحاديث الصبحاج من رواية الأحاديث تفيد العلم المظنون لا العلم المستيقن ، وقد اتفق علماؤنا على العمل بها في فروع الشريعة .

ورأيت قلة من الظاهرية والحنابلة يرون العمل بالأحاديث في القضايا القطعية ، بيد أن هذا رأى مردود ، وعلى أية حال فعوائدنا تعتمد على نصوص متواترة ، سواء كان التواتر لفظيا أو معنويا .

والقدر الذي لابد منه من العبادات والأخلاق والمسالك المنجية عند الله مروي بهذا الطريق .

وأكثر ما وقع من خلاف هو في أمور ثانوية ، الاجتهاد فيها من أهله مأجور خطأ كان أم صوابا ، ولا تهولنك وجهات النظر الكثيرة في المذاهب الفقهية ، فإن الخصام فيها نوع من الجنون الذي يسود بين الدهماء ، ويجب أن يتزه عنه أولو الألباب ..

ذلك ، ويرى أبو حنيفة أن « الفرض » ما ثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، أما ما يثبت بدليل ظنّ كأحاديث الأحاديث ، فإنه يكون دون الفرض ..

والأئمة الكبار يحسنون التنسيق بين أدلة الكتاب والسنة ، وفي علم أصول الفقه متسع لمن أراد الاستزادة ، وإنما ذكرت هذا الكلام لأنى في ميدان الدعوة الإسلامية وجدت ما يستحق الشرح والتعليق ، عند الاستشهاد بشتى الأحاديث ..

إننى آبى كل الإباء أن أربط مستقبل الإسلام كله بحديث آحاد مهما بلغت صحته ، كيف أجازف بعوائد ملة شامخة الدعائم عندما أقول : لا يؤمن بها من لم يؤمن بهذا الحديث الوارد ؟ .

أقول ذلك لأنى وجدت في تجربى ، وفي قراءاتى ما يحتاج إلى إزالة الريبة وكشف الحق ، قال الباقلانى يصف ما دار بينه وبين ملك الروم من حوار حول صحة الإسلام ،

«قال الملك : هذا الذى تدعونه معجزة لبنيكم فى انشقاق القمر ، كيف هو عندكم ؟ قلت : هو عندنا صحيح ! انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك ، وإنما رأه الحضور ، ومن صادف نظره إليه فى تلك الحال ! فقال الملك : وكيف لم يره جميع الناس ؟ قلت : لأن الناس لم يكونوا على موعد وأهبة ليروا انشقاشه ! قال الملك : أبينكم وبين القمر نسب ، أو قرابة ؟ لأى شىء لم تر ذلك الروم وسائر الناس ؟ وإنما رأيتموه أنتم خاصة ! قلت : فهذه المائدة - التى أنزلها الله على عيسى - بينكم وبينها قرابة ؟ لماذا رأيتموها أنتم وحدكم دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد ، وخاصة يونان جيرانكم ؟ فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن ، وأنتم رأيتموها دون غيركم ؟ » .

و قبل أن أذكر رأى فى هذا الجدال ، أذكر للقراء أن صاحب إظهار الحق تعرض لهذه القضية ، ورد على أتباع الكتاب المقدس بأدلة أخرى أشد قوة وأكثر إقناعا مما ذكره الشيخ الباقلانى . . .

وكانه يقول لهم : إن اعترضكم على قصة الانشقاق يرتد اليكم فيهدم مقررات عندكم لها مكانتها ، بل قد يحجب الثقة عن مراجعكم العتيدة ، و يجعلها مستحيلة الصدق ، وقد فصل كلامه في سبعة وجوه (١) نجتزي منها بوجهين اثنين :

الوجه الأول : يقولون إن طوفان نوح امتد سنة كاملة ، فنـى خلاها كل ذى حياة من الطيور والبهائم والحيشـرات والإنسان ، ما عدا أهل السفينة ، وما نجا من بنى الإنسان غير ثانية أشخاص على ما هو مـصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين . .

وقد أيد ذلك بطرس في رسائله الأولى والثانية ، وأكـد أن العالم القديم فـنى إلا ثانية أنفس .

قال الشيخ رحمـه الله : إن حادثـة الطوفـان كما يـذكر أهل الكتاب مضـت علىـها ٤٢١٢

(١) لخـصـنا بأمانـة ما ذـكرـه المؤـلف ، خـشـية التـطـوـيل ، وـمن شـاء رـجـع إـلـى الـكتـاب .

سنة شمسية - كتاب المؤلف ظهر منذ قرن تقريباً - وهذه الحادثة العامة الطامة لا يعلم
اهنود عنها شيئاً ، قال ابن خلدون : اعلم أن الفرس والهنود لا يعرفون الطوفان ، ويقول
بعض الفرس : إنه كان « ببابل فقط » ! .

والحق الذى نجزم به أن الطوفان وقع لقوم نوح وحدهم ، وأن أوروبا وإفريقية
والأمريكيتين وأكثر آسيا الكبرى لم يغمرها الطوفان ، ولماذا يحكم الله عليهما بالغرق وهى لا
تعرف نوحاً ولم تسمع به ؟؟ .

وظاهر من التاريخ العبرى أن الطوفان وقع بعد عصر بناء الأهرام فى مصر ، والمصريون
ما تعرضوا للطوفان ولا غرق من أرضهم شبر ! .

ومعنى ذلك أن ما ذكره سفر التكوين عن هلاك العالم القديم كله لا أصل له .

الوجه الثانى : جاء في الباب العاشر من كتاب يوشع وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة
١٨٤٤ م مaily : « ١٢ حينئذ تكلم يسوع أمام الرب في اليوم الذى دفع « الأمورى » في
يدى بني إسرائيل وقال أمامهم : أيتها الشمس مقابل « جبعون » لا تتحركى » (!) والقمر
مقابل قاع أيلون ١٣ فوقفت الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم ، أليس هذا
مكتوباً في سفر الأبرار ، فوقفت الشمس في كبد السماء ، ولم تكن تعجل إلى الغروب ، يوماً
تاماً؟ .

وفي الباب الرابع من الحصة الثالثة من كتاب تحقيق الدين الحق المطبوع سنة ١٨٤٦ م
ص ٣٦٢ يقول : « أما غربت الشمس - أى تأخر غروبها - بدعاء يوشع إلى
ساعة»؟ .

وتوقف الشمس في الفلك ، وعدم جنوحها إلى الغروب مدة يوم كامل كما يرون وقع
قبل الميلاد سنة ١٤٥٠ .

منْ من أهل الأرض يذكر هذه الحادثة؟ إن أحداً من كتاب التاريخ لم يشر إليها أو

يتحدث عنها ، وإذا كان عدم العلم العام بانشقاق القمر قادحاً في صحة الرواية ، فالأمر كذلك في توقف الشمس ليوشع ، بل إنَّ توقف الشمس يوماً ، أو بعض يوم أوغل في البعد وأجدر بالإنكار ..

ولأترك ما قاله صاحب إظهار الحق ولأعد إلى حوار الباقلانى مع ملك الروم ! إننى لو كنت مكان الرجل ، وسألنى هذا القىصر عن انشقاق القمر لقلت له كلاماً آخر .. !

لقلت له : أيها الامبراطور الكبير إن سلفاً عظيماً سبقك في حكم الرومان جاءه كتاب من رسولنا يقول له فيه « أسلم وسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ثم يختتم كتابه بقول الله تعالى « ... يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن توللوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون » (١).

أيها الامبراطور ، إن نبينا عندما كاتب سلفك ، لم يذكر له خارقة من خوارق العادات التي عرضت له ، وإنما خاطب عقله ، واستشار أ Nigel ما في نفسه ، وذكر له أنه باقٍ على إسلامه .

فإن رفض ملك الروم هذه الإجابة مني قلت له : إن شرحتَ صدراً بعقيدة التوحيد ، ورفضت من الناحية التاريخية انشقاق القمر وتوقف الشمس ، فأنت مسلم مقبول بالإيمان .

ولا يصدقك عن دين الله خبر راوٍ من الرواة حفظ أم نسى واعلم أن من مفكري المسلمين ومفسري دينهم من اعتبر الانشقاق من أشراط الساعة ، وأن من المتكلمين من توقف في أخبار الأحاديث ، كما قال إبراهيم النظام : « إن القمر لا ينشق لابن مسعود وحده » وابن مسعود هو الذي رُوى عنه الحديث المذكور ..

ربما قال لي قائل : كيف تهادون في حديث صحيح على هذا النحو ؟ وأجيب إنَّ ردّ

(١) الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

حديث بالهوى المجرد مسلك لا يليق بعالم ، وقد ردّ أئمتنا الأولون أحاديث صحاحا لأنها خالفت ما هو أقوى منها عقلاً ونقلأً .. وبذلك فقدت مقومات صحتها ، ومضى الإسلام بمعالمه ودعائمه لا يوقفه شيء ! وقد قلت : إنني لا أربط مستقبل ديننا بحديث آحاد يفيد العلم المظنون ، وأزيد الموضوع بياناً فأقول :

إنني أؤمن بخوارق العادات ، وأصدق وقوعها من المسلم والكافر والبر والفاجر ، وأعلم أن قانون السبيبية قد يحكمنا نحن البشر بيد أنه لا يحكم واسعه تبارك وتعالى ..

وعندما قرأت حديث الانشقاق شرعت أفكراً بعمق في موقف المشركين ، إنهم انصرفوا مكذبين إلى بيوتهم ورحالتهم بعدما رأوا القمر فلقتين عن يمين الجبل وشماله ، قالوا : سحرنا محمد ، ومضوا آمنين سالمين لا عقاب ولا عتاب .. ! .

قلت : كيف هذا ؟ في سورة الأنبياء يحكى الله سبحانه سرّ كفر المشركين بنبيهم محمدٌ مطلبهم منه ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾^(١) ويحكى القرآن لماذا لم يجذبوا إلى مطلبهم ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكتها أفهم يؤمنون﴾^(٢) إن التكذيب بعد وقوع الخارج المطلوب يوجب هلاك المكذبين ! .

فكيف يترك هؤلاء المكيون بدون توبیخ ولا عقوبة بعد احتقارهم لانشقاق القمر ؟ .
ويؤكد القرآن الكريم هذا المنطق في سورة الإسراء ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾^(٣) فإذا كان ارسال الآيات متنعاً لتكذيب الأولين بها فكيف وقع الانشقاق ؟ ..

بل كيف يقع أو يقع غيره والله يقول في سورة الحجر ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يرجمون ، لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾^(٤) .

(١) الآية : ٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٦ من سورة الأنبياء .

ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي مَوَاطِنٍ أُخْرَى أَحْمَوْا فِي طَلْبِ الْخَوَارِقِ الْحَسِيَّةِ ﴿٤﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لِئَنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا .. ﴿٥﴾ (١) فَلِمَذَا لَمْ يُقُلْ لَهُمْ : سَبَقَ أَنْ اشْقَى لَكُمُ الْقَمَرَ فَكَذَبْتُمْ ؟ أَيْمَرَ هَذَا الْحَدِيثُ لِيَعْقِبَهُ صَمْتٌ تَامٌ ؟ ..

وَفِي سُورَةِ أُخْرَى قِيلَ لِلْكَافِرِينَ وَهُمْ يَنْشَدُونَ الْمَعْجَزَاتِ الْحَسِيَّةِ : حَسِبْكُمُ الْقُرْآنُ فِيهِ مَقْنَعٌ لِمَنْ نَشَدَ الْحَقَّ ﴿٦﴾ وَقَالُوا : لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قَلِيلٌ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوْ لَمْ يَكُفُّهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يَتَلَقَّهُمْ .. ﴿٧﴾ (٢).

إِنْ مِئَاتُ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ كَثِيرَةٍ طَوَالُ الْعَهْدِ الْمَكِيِّ دَارَتْ فِي إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَاحِدٍ ، إِيقَاظِ الْعُقْلِ وَتَعْرِيفِهِ بِرَبِّهِ وَاعْتِبَارِ صَاحِبِ هَذَا الْوَحْىِ إِمامَ السَّائِرِينَ إِلَى اللهِ الْمُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ ، وَتَجَاوزَتْ مَقْتَرَحَاتِ الْكُفَّارِ أَنْ يَرْوُا آيَةً مَادِيَّةً مَعْجَزَةً ..

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ أَقْفِ طَوِيلًا عَنْ حَدِيثِ الْإِنْشَقَاقِ وَأَبَيْتُ بِقُوَّةِ أَنْ أَرْبِطَ مُسْتَقْبِلَ الدُّعَوَةِ بِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ أَحَادِيثِ الْأَحَادِيدِ الَّتِي تَصْطَدِمُ بِأَدْلَةٍ أَقْوَى مِنْهَا ..

وَلَسْتُ بِدُعَا فِي هَذَا الْمُسْلِكِ ، فَأَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكُ رَدُّوا أَحَادِيثَ مِنْ هَذَا الطَّرَازِ عَارِضُهَا مِنْ دَلَالَاتِ الْقُرْآنِ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا ..

إِنَّا لَا نَنْكِرُ الْخَوَارِقَ مِنْ حِيثِ هِيَ ، وَإِنَّا نَنَاقِشُ الْأَسَانِيدَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا ، وَنَوَازِنُ بَيْنَ دَلِيلٍ وَدَلِيلٍ ، وَإِيمَانُنَا بِالْخَوَارِقِ هُوَ الَّذِي جَعَلَنَا نَحْنُ مُسْلِمِينَ نَصِدِقُ بِمِيلَادِ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَالْقُرْآنُ قَاطِعٌ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَإِذَا ثَبَتَ قَوْلُ اللهِ فَلَا كَلَامٌ لِأَحَدٍ .. ! .

وَالْقَاعِدَةُ أَنْ خَبْرُ الْوَاحِدِ يُعْمَلُ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ هَنَاكَ دَلِيلٌ أَقْوَى مِنْهُ فِي صَارِ إِلَيْهِ ..

وَنَحْنُ فِي مَيْدَانِ الدُّعَوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَوَاجِهُ مَادِينَ لَا يَؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ ، وَكُتَّابِينَ يَؤْمِنُونَ

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٥٠ ، ٥١ من سورة العنكبوت .

بعض ما عندهم ويكررون بعض ، و المسلمين زحزهم الغزو الثقافي عن قواعدهم فهم يتبعون كل ناعق ..

ومن ثم يجب أن تكون الدعوة للأركان المستينة ، وأن يتبع الدعوة مما اختلفت فيه أنظار المسلمين أنفسهم ، وفي القطعى ما يغنى عن الظنى ، وفي الكتاب الكريم وما اشتهر من السنن غنية عن الغرائب والأراء الاجتهادية ..

لقد راقبت الموضوعات والشواهد التي يعيش كثير من الناس في جوها فوجدت خليطاً مزعجاً من مرويات نصفها واهٍ ، والنصف الآخر لا يكاد يفهم على وجه الصحيح إلا نادراً ، قلت : كيف تنجح دعايتنا للإسلام بهذا الأسلوب ؟ .

إنه على قدر العناية بالثانويات يقل الاكتراث بالأصول ! ولا يجوز ربط ديننا العظيم بأمور ما دارت في خواطر الصحابة والتابعين وهم ينشرون الإسلام في المشارق والمغارب ..

وحتى لا يفهم البعض أننى أنكر خوارق العادات ، أذكر أننى قرأت في الصحاح من كتب السنة قصصاً تنضح بالصدق والخير ، عرضت للنبي ﷺ وهو مع أصحابه ، أعنى أنها وقعت بين قوم مؤمنين لتزكيتهم إيماناً ، وإذا نقلت إلى كافرين محث من نفوسهم ظلماتٍ .

وفي دراستي للملل والنحل ، قرأت قصصاً مشابهة لها تام الشبه في بعض الأنجليل ! فعجبت لهذا الاتفاق ، وقبل أن أنقل ما رواه البخاري من تكريم الله لنبيه .

أقول : إن رسولنا ﷺ اختُصَّ من بين إخوته السابقين بمعجزة عقلية عامة دائمة ، أو حسب تعبيره صلوات الله عليه « أُوتيت وحْيَا يَتَلَى » ثم شق طريق البلاغ وسط أنواع وأعباء تهدّد الكواهل الشداد ، ولكنها وفق السنن المعتادة أدى الأمانة ونجح كما لم ينجح أحد ..

وفي أثناء ذلك قد يجتمع وهو يواجه أزمة ، أو يرهقه حصار ! وقد يُخرج ويُهزم في إحدى مراحل الجهاد ، أو قد يتبعه الرعاع بالحجارة يُدْمُون قدمه وهو عائد من محاولة ضائعة الشمرة .

وهو مع وثاقة الإيمان يهتف بربه : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ! .

من أولى بأن تخرق له العادات أحيانا من هذا الرسول ؟ فانظر بعض ما يروى من ذلك .

روى البخاري عن اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة : أنه سمع أنس بن مالك يقول :

قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ،

فهل عندك من شيء ؟ .

قالت : نعم فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدي ، ولا ثنتي ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله قال :

فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لي

رسول الله ﷺ :

أرسلت أبو طلحة ؟ .

فقلت : نعم .

قال : بطعم ؟ .

قلت : نعم ، ويظهر أن رسول الله أبي أن يأخذ ما أرسل إليه من طعام وقرر شيئاً آخر جاء في بقية الحديث .

فقال رسول الله ﷺ لمن معه قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته .

فقال أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ! . فقالت : الله ورسوله أعلم .

فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله .

هلّم يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبر ، فأمر به رسول الله ﷺ ففتّ ، وعصرت

أم سليم عكتة فآدمته ، ثم قال رسول الله فيه ما شاء الله آن يقول ، ثم قال :
انذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

انذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

انذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

انذن لعشرة ، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا .

وال القوم سبعون أو ثمانون رجلاً؟ .

ونترك هذه الصورة العجيبة ، ونقلب في كتاب التاريخ ، لنتظر صورة أخرى مشابهة وقعت لنبي الله عيسى بن مريم ، وهو من المرسلين أولى العزم ، وقد كافح في سبيل الله وتحمل من اليهود بلاء شديداً .

وقد كان مع عيسى حواريون آمنوا وثبتوا معه ، وشاء أن يريهم آية من آياته التي بها نبيه عيسى نقلها من كتاب « متى » لما فيها من شبه بها وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام .

(١٤) فلما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً ، فتحنن عليهم وشفى مرضاهم .

(١٥) ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين :

الموضع خلاء ، والوقت قد مضى ، (١٦) اصرف الجموع يمضوا إلى القرى وييتبعوا هم طعاماً ، فقال لهم يسوع :

لا حاجة لهم أن يمضوا ، أعطوههم أنتم ليأكلوا (١٧) .

فقالوا له : ليس عندنا هنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان (١٨) .

فقال اثنيني بها إلى هنا (١٩) فأمر الجموع أن يتکئوا على العشب ، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ ، والتلاميذ للجموع (٢٠) فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوئة (٢١) والأكلون كانوا نحو خمسة الآف رجل ، ما عدا النساء والأولاد .

ولفت الأنظار إلى أن تلك الخوارق لم تقع بين كفار يجحدون ، وإنما وقعت بين مؤمنين استقر في صدورهم اليقين ، وهنا قد يسأل سائل : ألم يكن الكفار أولى برؤية هذه الخوارق ليؤمنوا ؟ ونجيب بأن الذين كفروا من قبل قد قست قلوبهم واستغلقت عقولهم فهم لن يتغيروا برؤية المعجزات التي يظهرها الله على أيدي رس勒ه ، وإذا رأوها فسيقولون : سحر ، أو شعوذة ، أو أي شيء آخر .

ونعل ذلك هو السر فيها رواه متى عن عيسى عليه السلام لما طلبت منه آية : « جيل ترير فسوق بلتمس آية ، ولا تعطى له آية إلا آية يونان » يونس » النبي ، وتركهم ومضى ». وقد أكد مرقس هذا المعنى [٨ : ١١ - ١٢] فخرج الفريسيون وابتداوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه ، فتنهد بروحه وقال : لماذا يطلب هذا الجيل آية ! الحق أقول لكم : لن يعطى هذا الجيل آية . . . » .

وفي الأجيال المتعصبة المستكبرة على الحق يقول الله تعالى :

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة رب لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ^(١) .

إن عالم المرويات ممدود الأرجاء ، وما نحب أن يستغل كل الناس بالتجوال فيه ، فإن ذلك لا يصلح له إلا رجل يجمع بين أمرين : الأول معرفة المقبول من المردود ، الثاني معرفة الصحيح على وجهه المراد ، فقد رأيت ناسا يرونون الحديث الصحيح بيد أن معناه في عقولهم باطل ! وقد أصاب الإسلام من هؤلاء ضر شديد ! .

بل إن فساداً واسعاً وقع في عالم الاقتصاد ، وفي فقه العلاقات الدولية ، وفي العلاقات بين الجنسين ، وفي بيان أصول الحكم بسبب العوج في الفهم ، أو القصور في الفقه اللذين يصيّان مشتغلين بالمرويات .

والواجب أن تزداد عنية المسلمين بفقه الكتاب ، فإن النكبة في هذا الفقه لا يُداوِيها الاستبخار في السنن ، كما أنه لابد من ذُوّد العقول الكليلة عن العبث بما يقع بين يديها من مرويات ، فهي تسيء أكثر مما تحسن

(١) الآية : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

أَمَّةٌ بِخَيْرٍ يَجْبُ أَنْ تُؤْدِيَ رِسَالَتَهَا

بعد النومة الطويلة أو الاغماءة الطويلة التي أصابت المسلمين في الأعصار الأخيرة ، جاءت يقظة مرجوة الخير ، وشرع العامة والخاصة يمسحون عيونهم ويخربون أعضاءهم ويعملون على استئناف المشوار العتيق !

ونظرت إلى أمتي ترمي المستقبل بأمل ، وتنشط كى تتقدم وتزاحم وتسق ، ولكنها لا تتقدم خطوة حتى تهاصرها العقبات ، وتقفها المتابع ! والمحزن أن هذه المتابع من عند نفسها أكثر مما هي كيد العدو وسعيه لهزيمتها .. !

لقد شعرت بأن أمتنا نسيت رسالتها ، أو جهلت هذه الرسالة من زمان بعيد ، إن هذه الرسالة من وضع الله لنا لا من مزاعمنا لأنفسنا ، أو دعاوانا لجنسنا .. !

والأمة التي لا تعرف لها هدفا قد تتحرك في موضعها ، أو تتحرك في اتجاه مضاد ، أو تصيب نفسها وهي تريد إصابة غيرها ، إن الطيش يحكمها لا الرشد !

وقد حدد القرآن الكريم رسالتنا في هذا العالم فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ^(١) أهى دعوة نظرية إلى الخير في الملصقات والكتيبات والنشرات العامة ؟ لا ، يجب أن تقدم الأمة من نفسها نموذجا حيا أو أسوة حسنة لما تدعوا إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكِعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعُلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَجَاهُدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ .. ﴾ ^(٢).

(١) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ٢٧٣ من سورة الحج .

إن عمل الخير والدعوة إلى الخير ، سمات الأمة الظاهرة ، وملكاتها الباطنة ، ووظيفتها الدائمة ، وشهرتها التي تلا الآفاق ، وإجابتها عندما تُسأل عن منهجها وغايتها ﴿وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا﴾ !^(١).

وما يُتَّظَرُ من أمة تحمل رسالة السماء وتبني دعوة الحق إلا أن تكون حارسة للشرف ، مترفة على الدنيا ، متواصية بالمرحمة ، منظوراً إليها محلياً وعالمياً بأنها سند المظلوم وجار المستضعف ، ويجب أن تكون قدِّيرة على ذلك وسمحة به !! .

وقد بين الله أن الأنبياء - وكذلك أتباعهم - ليسوا باعة كلام ولا أدعياء فضل بل هم كما شرح في كتابه ﴿ وأوحينا إليهم فِعْلُ الْخَيْرَاتِ وِإِقَامُ الصَّلَاةِ وِإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِين﴾^(٢) .

فهل تولت أمتنا هذا المنصب ؟ أو هل تأهلت له بفقهها وسلوكها ؟ أم زاحت غيرها على طلب المتع والتعلق بالدنيا ؟ الذي يبدوا أن المسلمين شعوباً وحكومات - هبطوا دون المستوى المنشود ، بل هبطوا دون مستوى غيرهم من لم يشرفهم وحده ، ويكلّفوا بحمل رسالة ! .

والمرء قد يمشي الهويني غير آبه لما أمامه إذا كان خالى البال لا يشغله واجب محمد ، أما إذا كان في سباق مهمٍّ ومع أنداد قادرين أو خصوم قاهرين فإنه يبحث الخطى ويجمع العزم ويتجاوز العقبات . . .

وال المسلمين منذ بدأوا تارikhهم ما صفا لهم الجو ، ولا خلا لهم الطريق . . ! فكل استرخاء أو تخاذل سيستغله شياطين الإنس والجنة للنيل من الحق وتركه في المؤخرة والانفراد دونه بالصدارة . . .

(١) الآية : ٣٠ من سورة النحل .

(٢) الآية : ٧٣ من سورة الأنبياء .

وهذا ما وقع فنحن المسلمين الآن في العالم الثالث على حير أنسنة برمضان الخصوصية . . .
ينكرون الألوهية أو من يتخيلونها « عائلة مقدسه » . . .

وهم لم يعوقونا عن الانطلاق في أغلب مراحل تخلفنا . بل نحن الذين فرطنا ونكأنا . . .
وتركتنا المجال فسيحا أمام غيرنا فملاه لما أخلفناه .

إن عناوين الخير والمعروف - وهي معالم رسالتنا - لم نساندتها حقائق قفترة . فكانت
النتيجة أن تلاشى صدى هذه الكلمات النبيلة ، فاختفى وقعها من نفوس السامعين .
وظفت أمم كثيرة أن المسلمين طلاب شهوات أو قطاع طرق ، وأنهم يوم يمسكون القسوة
يسخرونها لإعلاء جنس ، وتحقيق أمجاد وطنية أو قومية ، وهذا كله إفك ! بيد أن المستول
عن انتشار شائعاته أصدقاء جهله أو عجزة ، كيما يحمل المسئولية أيضًا أعداء ، مُرحبون
مُرثيون .

تدبرت هذه الآية ﴿ قل : إنما أندركم بالوحى ﴾^(١) والآية الأخرى ﴿ فلا تطع الكافرين
وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾^(٢) فرأيت أن صاحب الرسالة لا يفتح العقول بسكين إيمان
يفتحها بكلمات الله المنيرة التي تنزلت عليه ، وأنه منهي عن صاعة الكافرين مموز أن
ي jihad بهذا القرآن من تنكروا له واعتراضوا سيره . . .

وأعلم بدراساتي وتجربتي معاً أن هناك مستكبارين يستبيحون غيرهم ويختاحون حقوقه
المادية والأدبية ، وأن الاستسلام هو لاء وضاعة ، وترك الحقيقة تداس تحت أقدامهم جريمة !
إن هؤلاء لابد من مقاومتهم وحشد أهل اليقين لجسم شرهم ! .

فـ هؤلاء يقول الله لنبيه : ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تُكَلَّفُ إِلَّا نفسك وحرّض المؤمنين
عسى الله أن يكفّ بأس الدين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تكيلًا ﴾^(٣) .

(١) الآية : ٤٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٥٢ من سورة الفرقان .

تدبر هذا السياق ، وكيف أبرز عدواً المعتدون ، وكيف يستعان بالله على كفالة شرهم ، وكسر بأسهم ! إن المؤمنين يلقون هجوماً فلا يجوز لهم أن يفروا أمامه ! ومن أجل الله وفي سبيل الله يتحملون أعباء هذا التصدي .

إننا لم نبدأ عدواً ، لقد أنذرنا بالوحى ، وجاهتنا بالكلمة ، وشرحنا بعيتنا وهى تحقيق الخير والمعروف في الدنيا ، وتحويل الأرض - حيث قدرنا - إلى ساحات عبادة لله وترابه بين عباده لا يدع في المجتمع جائعاً ولا عارياً ولا محروماً ولا محظواً . . .

تلك أهداف أمتنا كما رسمها القرآن الكريم ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ ^(١) .

لكن المأساة الكبرى أن هذا الهدف نسيه من فيه ، ولم يشغل نفسه ولا قومه بالإعداد العلمي الواسع له ، ولم يكلف نفسه محو الشبهات التي أثيرت عمداً حول مقاصده .

فمضت الأمة في طريق مليء بالغيوم ، وأخذت تقاتل دون أن يكون بين يديها عرضاً جيد للحق ، وتطبيق أبود لمبادئه ، وكنت أقرأ وأنا طالب أن علاقتنا بغيرنا هي الإسلام أو الجزية أو الحرب ! ! ! ! .

إن الذي أرسل هذا الكلام على عواهنه نسي الوظيفة الأولى للأمة ، وهى الدعوة السليمة وإرسال أشعة كاشفة عما تريده للعالم من رشد وسعادة . . .

قد يدهش أمرؤ لهذا القول ويرد على عجل : كان آباءُنا يدعون إلى عقيدة التوحيد ويستندون في جدالهم عنها إلى مواريثهم من كتاب وسنة ، فلا عذر لأحد .

ونمضي نحن في توضيح ما نعني ! إن عقيدة التوحيد جذع شجرة باسقة مزهرة مثمرة لها سبعون غصناً ، أو سبعون شعبة يلتمس الناس تحتها الظل والجني ، لماذا جعلنا هذه

(١) الآية : ٤١ من سورة الحج .

العقيدة خشبة جرداً لا تغرى أحداً أن يأوي إليها ؟ لماذا ترك المجال مفتوحاً أمام الأعداء يزعمون أنها شجرة شوك لا زهر فيها ولا ثمر ؟ .

إن الخاصة الأولى للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقة ، لا تطيق تشويهاً ولا إغفالها ، ومن ثم فهى لا تسكت عن أمر بمعرف أو النهى عن منكر فإذا بللت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه ، وتدع العامة والخاصة لا يعرفون معرفة ولا ينكرون منكراً فهل هى بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله ؟ أم هى تقطع الطريق إليها ..

لقد أخذ الأحرار على ملك فرنس لويس الرابع عشر أنه قال : أنا الدولة ! يعني أنه وحده المسؤول عن شؤونها لا شريك له .

فإذا كان «السلطان» في بلاد الإسلام يردد بلسان الحال أو المقال هذه الكلمة ، فما الفرق بين دولة الإيمان ودولة الكفر ، وأين يجد الناس ساحة المسائلة والشوري ، والأخذ والرد دون تهيب ولا توجُّس ؟ ؟ .

إن العقيدة الإسلامية أساس حضارة راشدة راقية ولا يسوغ أن يتدرّع بها من يخدمون مآربهم وأغراضهم ، ونحن مكلفوُن بتبلیغ رسالة نازلة من السماء لا حمل أوضاع من صنع الناس .

أعرف ويعرف غيري أن الإمام العظمى في الإسلام احتكرتها ثلاث أسر خلال اثنى عشر قرناً ، أفلم صلحة الإسلام وعلى هدى تعاليمه تم هذا ؟ قد نقول : إن هذا الخطأ لم يؤثر على حقيقة الدين أو على مساره ، وهذه إجابة تتطلب وقفة طويلة وشرعاً مستفيضاً ، لا سيما أن ركاماً الأخطاء الذي آل إلينا على مر القرون جعل المسلمين المعاصرین يضطربون في الفهم والمنهج ، بل جعلهم يظنون أن الحكم من نوازل القدر التي لا تُرْدُ ، وأن استقباله كاستقبال الآفات والمصائب الوافدة يكون بالصبر والاسترجاع ! .

وقد أورثتهم هذه الجبرية الخرافية استسلاماً واستكانة لضروب الحكم الاستبدادي قلّما يعرفان في جنس آخر . . . ! .

إن الدوامة صحّبة الرّسانة تَكرِس بِوَاهِيَّةِ الْمَدِيَّةِ وَالْأَدْبَرِيَّةِ فِي الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ لِلْإِنْجَاحِ
رَسَّلتُهَا وَشَرَحَ حَقَائِقَهَا عَلَى نَحْوِ رَائِقٍ جَذَابٍ ، وَلَيْسَ يَجِدُهَا زَحْرَفُ الْقَوْلِ إِذَا كَانَتْ
صَوْرَتُهَا الدَّاخِلِيَّةَ مَيْمَنَةً ، إِذَا سَأَسَ بَعْدَ التَّرْوِيِّ وَالتَّأْمَلِ يَعْوَلُونَ عَلَى الْمَوْضِعِ لَا عَلَى
الْمَسْكَلِ . . .

والوظيفة الأولى لدولة الإسلام أن تُرى الأمم الأخرى آفاقَ الْخَيْرِ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مَشْرِقَةُ
فِي حَيَّاتِهَا هِيَ ! وَأَحْلَاقُهَا وَتَقَالِيْدُهَا وَعِبَادَاتُهَا وَمَعَامِلَاتُهَا وَآدَابُهَا وَفَنُونُهَا وَمَلَاهِيهَا
وَأَسْوَاقُهَا وَقَرَاهُهَا وَمَدِنَاهَا . أَىٰ فِي جَمِيعِ أَنْشِطَتِهَا الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ أَعْمَالِهَا وَآمَالِهَا . . .
إِنَّا - بِاسْمِ الْإِسْلَامِ - نَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَنَفْعُلُهُ ، فَمَا وَزْنُ هَذِهِ الدَّعْوَى الْعَرِيْضَةِ وَمَا
آثَارُهَا؟ . . .

إِنِّي أَقْرَرْتُ مَطْمَنَتِي أَنَّا لَمْ نَحْسِنْ تَبْصِيرَ الْجَاهِيرِ الْأَهَمَّةَ فِي شَتَّى الْقَارَاتِ ، وَلَيْسَ لَدِنَا
أَنْجِهَرَةٌ قَدِيمَةٌ قَاتِمَةٌ مِنْ قَرْوَنَ عَلَى الْبَلَاغِ الْمُبِينِ ، وَالَّذِينَ اخْتَطَفُوا مَنَاصِبَ الْإِمَامَةِ الْعَامَّةِ
حَقْبَ مَدِيْدَةٍ كَانُوا آنْزَلُ رَتْبَةَ مِنْ أَنْ يَنْهَضُوا بِهَذَا الْعَبْءِ ! .

إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَالِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَرْسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مَكَانَةً لِدِيْهِمْ . . . وَقَدْ حَسِبْتُ لَفِيفَ
مِنَ الْعَرَبِ أَنَّ الْإِسْلَامَ شَرْوَةٌ قَوْمِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَتَفَعَّلَ بِهَا الْجَنْسُ الْعَرَبِيُّ - كَثْرَوَةُ النَّفْطِ مَثَلًاً -
فَرَكَوْا الْإِسْلَامَ يَتَمَدَّدُ بِقُوَّاتِ الْذَّاتِيَّةِ وَبِالْجَهُودِ الشَّعْبِيَّةِ ، وَانْشَغَلُوا هُمْ بِمَرَاسِمِ الْحُكْمِ
وَمَطَالِبِهِ . . .

فَلِمَّا وَقَعَتِ الْخَلَافَةُ فِي يَدِ الْأَتْرَاكِ بَدَأُوا بِدَائِيَّةٍ حَسَنَةٍ فِي خَدْمَةِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ اتَّقَلَتِ الْيَهُودُ
عَلَى الْخَلَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَضَاعُوا وَأَضَاعُوا . . .

وَطَلَعَ عَلَيْنَا هَذَا الْعَصْرُ الْكَئِيبُ ، فَإِذَا رَأَيَاتِ الْإِسْلَامَ تُطْوَى عَلَانِيَّةً تَحْتَ شَعَارَاتِ
الْعَرَوَةِ الَّتِي تَعْدُ بِحَمْدِهِ بَطْلًا قَوْمِيًّا (!) وَأَمَامَ زَحْفِ الْمَلَلِ وَالْفَلَسْفَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي خَلَّا
الْجَوْهُرُ الْمُهَاجِرُ فِيَّا فَبَاضَتْ وَأَفْرَخَتْ . . .

تَلَكَّ خَسَائِرَ فَادِحَةٍ نَزَلَتْ بِأَمْتَنَا وَرَسَالَتَنَا ، وَالْعَلاجُ أَنْ نَعْرِفْ : مَنْ نَحْنُ؟ وَمَا

رسالتنا؟ وكيف نؤديها؟ وكيف نتخلص من أخطائنا؟ وكيف نستفيد من تجارب النصر والهزيمة ، والمد والجزر . . .

ولنعلم أن عباد الله في المشارق والمغارب ليسوا مستعدين أن يتبعوا قيصرًا جديداً يلبس عباءة الإسلام ، وأن علماء الدين الذين يشغبون على الشورى ليسوا علماء ولا متدينين ، إنما هم فدّى تحب تنجيه عن الطريق . . .

وأعرف أن الاستبداد السياسي عاد إلى المجتمعات من الباب الخلفي في شكل تنظيمات دستورية مزورة ! والحقيقة لا تخفي وراء هذه الألبسة الخادعة منها تراكم حولها ذباب المتفعين والمنافقين . . .

الإسلام وأمته أكبر من هذه المظاهر ! ولن يصدق الناس أننا رجال أحرار ، نحنى وحسب أمام الواحد القهار ، ما بقيت صفوتنا يتقدمها قزم تغضى أمامه العيون ، وتخرس الألسنة لأمرٍ ما . . . !

وفي عصرنا هذا تتوّدّ المذاهب الأرضية إلى الناس بكفالة ضروراتهم البدنية ، وإشباع نهمتهم منها ! والإنسان بطبيعته يكره ذل الحاجة ، ويضيق بكتب لا نهاية له ، ويتعلق بأي نظام ييسر له الضرورات ، ويعده أو ييسر له بعض المرفهات . . .

هل تحبّم الإسلام هذه الطبيعة البشرية ؟ إن إيراد السؤال على هذا النحو خطأ ! هل لم يسارع الإسلام إلى كفالة هذه الحقوق البشرية ؟ .

في صدر حياتي ألفت بضعة كتب شرحت تلك القضية ، كنا - أنا وسيد قطب ، ومصطفى السباعي - نذوذ الجماهير المتعلقة عن اعتناق الشيوعية ، لأن برقيها استهواهم ، فقدمنا البديل من تعاليم الإسلام . . .

وإنما استهوى الناس هذا البريق لأن فوضى التملك من حرام تسرّبت إلى أغلب الأموال ، ولأن تبلّد المشاعر بإزاء الآم المحروم من قطع أوصال المجتمع ، وبعثر في أكباده بذور الحقد ! .

وثير من المستغلين بالثقافة الإسلامية يحسبون أن الإسلام بعدهما قضى على الأصنام في الجزيرة العربية قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة وليعيش الناس حسب ما يرغبون من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ففي الأمر متسع ول يكن ما يكون . . ! .

وهذا الجهل الفاضح أثقل الأفكار والأقدام ، وأحكم حوالها القيود فكانت العاقبة أن وثب العالم إلى الأمام بخطوات فساح ، وضبط شئون الحكم والمال وفق ما يرى مصلحته ، أما المسلمون فوقوا أو تخلفوا ، ومن أراد بهم خيرا حاول إلهاقهم بقطار الشرق أو الغرب ، لأنه لا يعرف حقيقة الدين من رجال قاصرين ، ومن هنا توجب على الحكومة الإسلامية أن ترقب سير المال في الحياة العامة ، وأن تدرك خطورة انحرافه أو طغيانه على العقائد والأخلاق . .

ولا أجد أى حرج في اقتباس ما استحدثه البشر من أنظمة ووسائل حماية الفرد من طغيان الاستبداد أو رأس المال . .

والواقع أن العصور الحديثة لها اجتهاد مثمر ناجح في تنظيم الشورى ، وفي إدارة الأعمال ، وفي حماية الفقراء والكادحين . . .

ونقل هذه الوسائل إلى بلاد الإسلام ليس بدعة ضلاله كما يزعم المتدلين الجهال ، بل تكاد تكون واجباً حتى بعد عهود التخلف والضياع التي رانت علينا . .

ومن السفة استبقاء الشورى في طورها الساذج أيام سقيفة بنى ساعدة واستبقاء العطاء يداً تدفع ويداً تأخذ وحسب ! .

إن العمran البشري اتسعت دائرته وتعقدت أحواله ، وعلينا مواجهة ما جدّ بأقضية ذكية مجدية ، وما فكرنا يوماً في تعطيل نص ، أو الشذوذ عن قاعدة ، وإنها سعينا إلى تجاوز عصور الانحطاط والمزيمة التي طال ليلها ، مستندين إلى مواريثنا المحفوظة وحدها . . .

ومن واجب الدولة ضبط العلاقات بين الجنسين داخل إطارها الصحيح ، فإن ذوى

الفطر السليمة ضاقوا بالتجرب الجاهلى الذى يصاحب الحضارة الحديثة ، وما انتهى إليه من انحدار وتهتك ..

وقد قلنا : إن العجز الفكرى والنفسى عند لغيف من المتدلين من وراء هذا التطرف الحيوانى الكاسح ! فهم لا يفهمون المرأة إلا وسيلة متعة خاصة ، وينكرون عليها إنضاج ملكاتها الروحية والعلمية ، ولا يعون أن لها أى حصة في ميادين التربية وآفاق المجتمع ، وخدمة الدين والدولة ..

وقد أعيانى الحديث مع شباب يوجب تغطية وجه المرأة ويديها ويحرم عليها الجمُع والجماعات ، ويذهب إلى جملة من المرويات الشاذة أو المنكرة كى ينزل الدين على رأيه ! قلت لهم : إن عملكم هذا سيجعل النهضة النسائية تزيف عن الدين ، وتلهث وراء الغرب .

وعندما تقولون : لابد من ضرب النقاب على الوجه فسوف يسحب النساء الخمار عن الرءوس ، وعندما تقولون : لا بد من تخبيء الأيدي داخل قفاز فسوف تعرى السواعد والأيدي جميعاً ، إن الغلو يستتبع الغلو ، إنكم تكذبون على الإسلام من جانب وهن يكذبن على الإسلام من جانب آخر ، وكلاكم شر من صاحبه ! .

وأرى أن تدخل الدولة في موضوع الزواج ، وتكوين الأسر ، فإن النفاق الاجتماعي وتقاليد الرياء جعلا من عقد الزواج شيئاً يقصم الظهور ، ويستدعي التريث والإرجاء ، وإلى أن يتم بعد لأى يقع في صمت وخفاء ما يندى له الجبين ، وما لا يقبله دين !! .

وَثَمَّ أمر جدير بالإبراز والإثارة ! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة ، وهى إذا لم تجد لها سمعت خلقها واحتضان رجالها ..

وأرى أن كثيراً من المعارف المسمومة ، والفتاوى الكاذبة ، والأحكام الطفيفية ، قد عاشت وغلاست في حضانة الحكم الفردى والاستبداد السياسى ، وقد لاحظت أن جماهير

المسلمين خلال عدة قرون احتبس في مجادلات لا تساوى قلامه ظفر ، وهاجمت أعصاها
في خلافات محمومة لا طائل تحتها . . .
وذلك في وقت كانت رقعة الإسلام تنكمش ، وأعداؤه يشتدون وشئونه العظمى يبت
فيها التافهون . . .

إنى شعرت بأن هذا مراد ، وإذا لم يكن مخططا فقد تم لصالحة الطاغين الذين يعينهم
أن تشغلهن الأمة عنهم وعن مبادئهم .
وفي عصرنا هذا تقوم شتى الفنون ، والألعاب الرياضية بها يشبه هذا الدور . .
ولا أدرى لماذا تهتاج أمة هزيمة رياضية ولا تهتز لها شعرة هزائمها الحضارية والصناعية
والاجتماعية؟؟ .

والحكم الإسلامي في قرون خلت لم يرتفع إلى مستوى الإسلام نفسه ، فلا عجب إذا
فشل في تبليغ رسالته وفي الدفاع عنه عندما تُعرض له الأزمات . .
وقد رأينا الخلافة العباسية في الزحف الصليبي الأول ، لقد عجزت عن حشد طاقات
الأمة بل عن جمع صفوفها ، فإذا الحملات القادمة من الغرب تعم في دمائنا ، لا يردها
رآد! وبقيت الخلافة الواهنة تترنح حتى ماتت تحت أقدام التتار المعاونين مع الصليبية في
السر والمسلمون لا يدركون ! .

وتكررت المأساة نفسها مع الخلافة العثمانية ، حذوك النعل بالنعل ! ونجح الاستعمار
الصليبي الثاني في نبذ الخلافة العظمى (!) وال الخليفة المسكين ، نبذ النواة .
ودفعت جماهير المسلمين من دمها ومن كرامتها ثمن فساد السياسة والثقافة في عالمنا
الإسلامى المريض ! .

وقد تحدثتُ عن هذا التاريخ بشيء من التفصيل في كتابي « الدعوة الإسلامية تستقبل
القرن الخامس عشر » وما كررت الإشارة إليه هنا إلا لأنى رأيت أناساً يعملون في الحقل
الإسلامي لا يعلمون معاقد الدين ، ولا غایاته العظمى ، وهم يجتهدون في استحياء العلل

القديمة ، يحسبونها أسباب نهضة وما دروا أنها أسباب البار . . ! ! .

إن الدولة الأمينة على الرسالة الإسلامية عليها واجبات ثقيلة نحو الأمة التي تقوم على
شئونها ، ونحو الأجيال الناشئة التي تقوم على تربيتها يمكن إجمالها في النقط الآتية :

(أ) تجديد علوم الدين ، وتبصير طلابه بالحقائق الرئيسية ، وتجاوز القضايا
والخلافات التي خلقها الفراغ والترف في بعض الأزمنة ، وبيان ما هو قطعى وما هو ظنى ،
وما هو أصلى وما هو فرعى ، وتناول المذاهب المختلفة على أنها وجهات نظر ليست
معصومة من الخطأ . .

إن تدريس الدين الآن بحاجة إلى إعادة نظر ! فهناك معلومات تقدم للكبار فقط
تشحن بها عقول الصغار ، وهناك آراء للرجال تقدم على أنها وحى معصوم أو نص ثابت !
وهناك أركان للأخلاق والسلوك تراجعت لتحل محلها صور فقهية ثانوية ! .

(ب) إن العناية بالتربية تتطلب محور الخصومة القائمة بين الفقهاء والصوفية على أساس
تجريد التصوف من البدع والخرفات التي التصقت به ، ورده إلى كتاب الله وسنة رسوله رداً
يدرب الناس على مقام الإحسان ، أعني مراقبة الله ومشاهدته . .

إن الإنسان لا يرقى أبداً بعقله وحده ، فكم من ذكى العقل غزير العلم تراه خبيثاً لا
تؤمن أطماعه ، وكم من منافق علیم اللسان .

وأعرف أن عدداً من المتنميين إلى التصوف دعى لا ضمير له ، غير أن هذا لا يزهدنا في
تعهد القلوب بها في هذا العلم من حِكْمٍ ثمينة ، وتجارب رقيقة . . .

ولست أحب أن ينفصل العلم عن التربية الروحية ، ولا أن تنفصل التربية الروحية عن
العلم فلا قيمة لأحدهما دون الآخر .

(ج) جماهير المسلمين فقيرة إلى تدريب مستمر على الشئون المدنية ، وهي بحاجة ملحة
إلى مهارات كثيرة في ميادين الحياة العملية ، وتخلفها في هذا المضمار يهزم الإسلام وينال من
قدراته على قيادة الناس .

وإنه ليحزننى أن يكون المسلم - لغير سبب واضح - أقل من غيره إجاده للحرف المختلفة .

والحق أن ما نراه الآن هو أثر التدين المغشوش الذى سيطر على المسلمين حيناً من الدهر، وجعل فهمهم قاصراً للدين والدنيا معاً .

(د) أرى تنظيم فرق للفتوة ، أو بتعبير العصر فرق للكشافة والجحولة ، إن الرياضة البدنية تصنع الأجسام وال NFOS صناعة حسنة ، وتشجع مشاركات اجتماعية طيبة . والاهتمام بالرياضة لا يكون بإقامة بعض الأندية المتخصصة في لعبة كذا أو كذا . . ربما أفاد ذلك بعض المتمم لهذه الأندية ، على حين تحول الجماهير إلى طوائف من المشجعين العاطلين . . ! .

وقد راقبت الفرق العربية التي تذهب للمباريات العالمية فوجدت أغلبها يعود فاشلاً صفر اليدين من أقل الجوائز . . أما الدول العظمى فتظفر بأعلى الجوائز ، وتكسر أرقاماً قياسية كما يقولون ، فأدركنا أننا متعبون جسانياً وروحانياً على سواء ! .
وعلاج ذلك العجز يبدأ من تصحيح القاعدة الشعبية نفسها .

فقد تقول : ثم ماذا ؟ بعد أن تنشأ للإسلام أمة قوية الروح والجسد قوية العقل والعاطفة .

أجيب : لن تكون هذه الأمة مطامع جنسية أو مادية ، ولن تزعم أن الدم الآرى أفضل من الدم السامى ، أو أن أولاد يعقوب أشرف من أولاد اسماعيل .

إن رسالتها أن تكون مع المظلوم حتى يتصف ، ومع المحروم حتى يستغنى ، ولن تكون لها قداسة إذا أهانت الحق ، أو استووحش الحق في جنباتها .

رسالة الأمة - كما شرحها كتابها - فعل الخير والدعوة إليه ، عمل المعروف ومحو المنكر ! .

ومعنى الخير مركوز في فطرة البشر وقد يضبطه الوحي الإلهي ويزيل ما يشوبه من لبس ،

وكذلك معنى المعروف ، فإن العقل والنقل يتطابقان غالباً على إبرازه ودعمه . . .
وإيراد رسالة الأمة تحت هذا العنوان مقصود حتى يعرف القاصي والداني ما هي
وجهتها وما هي شرعتها ؟ .

وعندما نقوم وفق معلم أسلافنا فستكون تلك صبغتنا في المجتمع الدولي ، وقد نسفك
دماء أبنائنا لنحرر الزنوج في جنوب إفريقية لا لشيء إلا لإرضاء الله وإقرار الحق !! .
إن أسلافنا الأوائل عندما قاتلوا قديماً كانت تملّكتهم هذه التزعة النبيلة ، ومن زعم أن
الاستعمار الروماني أو الفارسي كان جديراً بالمهادنة فهو مفترٌ جريء .
وما أنكر أن المسلمين في أعصار شتى ملك أمرهم من ظلمهم وظلم الناس معهم ،
وسوءاً سمعتهم وسمعة الدين الذي نسبت بين ظهرانيهم ! .

على أننا لم نفلت وما يفلت غيرنا من عقاب الله ، ونحن نقرأ في كتابنا أن المستقبل لا
تصنّعه الأمانة الخادعة ، وأن مزاعمنا ومزاعم غيرنا لا وزن لها عند الله الذي يقول :
﴿لَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُعَذَّبْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا
وَلَا نَصِيرًا﴾ ^(١) .

إن ديننا يزن الأعمال بمثقال الذرّة لا يقبل الفوضى الهاشمة التي تقع بين الناس ، سواء
كانوا مسلمين ، أم كانوا يهوداً أو نصارى . . .

(١) الآية : ١٢٣ من سورة النساء .

أما لهذا الحقد من حدٌ؟

كان لابد من رسالة جديدة تصحح الأخطاء الجسيمة التي انتشرت بين الناس ! ربما عرف أصحاب العقول المتوسطة أن الأصنام شيء لا ينفع ولا يضر ، وأن عبادتها ضرب من السفه البين ، أفظنن أصحاب هذه العقول يكتشفون الأغلاط السيئة التي دسّها أهل الكتاب في أطواب كتبهم ؟ إنهم قد يستبعشونها وقد يتحيرون أمامها وقد يستبعدونها في أعماقهم وقد يحاولون إمارتها !! .

وذلك ما حدث ، ومن ثم شاع بين الناس أن الله يفعل ويندم ، ويدرك وينسى ، ويغضب فيطيش به غضبه ، وأنه قد يتجسد ويمشي على الثرى ويأكل ويشرب ويصارع واحداً من خلقه . . . الخ .

كما شاع أن المرسلين من لدنه يسرقون ويزنون ويمسكون ويحتالون ويقتلون الخ ، فإن يك هذا شأن قمم الخلية فهذا ينتظر من السوقه ؟ .

كان لابد من رسالة جديدة تشرح الصواب وتحوّل الضلال ، وتنصف حقيقة الألوهية ، وتبれئ منصب النبوة وتضع الجماهير أمام الحق الذي تاهوا عنه دهراً طويلاً .

وما كان يقدر على هذه المهمة الصعبة أحد قط ، إلا محمد والوحى الذي جاء به ﴿لَمْ يَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيهِمُ الْبَيِّنَاتُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صَحْفًا مَطْهَرًا * فِيهَا كَتَبٌ قَيْمَةٌ﴾ (١) .

(١) الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ من سورة البينة .

ومع أن الكهنة على اختلاف رتبهم تفرقوا في أقطار العالم ينشرون أفكارهم العلية ، فإن القرآن الكريم ناداهم برق ، ولم يكشف مقالاتهم السيئة بل قال :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يَبْيَنُ لَكُمْ كَثِيرًا مَا كُنْتُمْ تَخْفَوْنَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوْ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنْ أَنْتَ بِرَضْوَانِهِ سُبُّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

إنه لم يذكر بتفصيل ما هم به مُتَهَمُون ! مع أن تهمتهم هي الافتراء المنكور على الله ورسله ، وذلك تأليف لهم ، وإغراء بالعودة إلى الحق ، ومنع للإرجاع ! .

ومع ذلك فلا يزال القوم يخاصمون القرآن ونبيه الهاذى الكريم ولا يزالون يطيرون شرقاً وغرباً ومعهم صحائفهم المعتمة ملأى بما يسخط الله ويحط من أقدار النَّبِيِّنَ ! .

لقد كانت رسالة محمد حَدَّا فاصلاً بين عهدين ، عهد اعترف فيه رونق الدين وغلبة شوائب دخيلة .

وعهد تأكُّل فيه التوحيد ، وتقرُّر فيه ما ينبغي للذات العليا من تمجيد وتنزيه ، كما تقرر فيه ما يجب على البشر من انقياد لله وإنفاذ لأوامره يتقدّمهم في ميدان العبودية رسول صالحون ، أتقياء شرفاء ﴿عِبَادٌ مَكْرُمُونَ لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

يستحيل أن يحقد على محمد رجل له ثقافة محترمة أو عقل بصير لماذا يحقد عليه ؟ لأن كتابه يصف الخالق الأعلى فيقول :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقِيُومُ لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ وَلَا نُومٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) ؟ أو لأن الله تبارك اسمه يتحدث في هذا الكتاب عن نفسه فيقول :

(١) الآيات : ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

(٢) الآيات : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَقْلِوْ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَنَا عَلَيْكُمْ شَهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ^(١).

أهذه هي الجريمة التي ارتكبها محمد؟ أو كان من الممكن أن يكون رجلاً صالحًا لو أنه وصف الله بالغفلة عما يقع أو الندم على ما فعل؟ ..

هل في الدنيا كتاب أثني على الله بما هو أهله ، وأسنده صفات الجمال والجلال ، وخصّه بالأسماء الحسنى ، وجعل الأفئدة توجل من خشيته ، أو تنشرح بمحبته كهذا القرآن الكريم؟ أذلك ما يجعل أهل الكتاب يُشَرِّقُونَ وَيُعَرِّبُونَ للتنفير منه والتحامل على صاحبه؟ .

الحق أنى أنظر إلى رجال الكهنوت الناقمين على محمد فلا أرى في سيرتهم ولا في سريرتهم إلا ما يشير الزراية .

إن اليهود عاشوا في جزيرة العرب عدة قرون قبل ظهور الإسلام فماذا فعلوا ضد الوثنية؟ .

لو أن عشر تعصبهم للإسلام وبغضهم لرسوله وجهوه ضد الجاهلية الأولى لزالت أو خف ظلامها ، إنهم عاشوا على استباقها وإيقاد الفتنة بين أهلها ، وكأنها كانت مهمتهم أن يختالوا بما ورثوا من علم مغشوش ، وأن يعدوا الأميين غنيمة باردة يأكلونها باسم الله خالق الشعب المختار .

أتبكى الإنسانية على دين تلك حقيقته وهذا تاريخه؟ .

ولو أن رجال النصرانية أحسنوا السير على منهج عيسى لكان لهم مع العهد القديم

(١) الآية : ٦١ من سورة يونس .

سياسة أخرى ، ولكن لهم مسلك أهدى وأرشد ، لكن غلب عليهم أمران معيبان ! إثبات التجسد الإلهي ، وتجويز السقوط على الأنبياء .

ولم فعلوا ذلك ؟ ليسهل تصوّر إله إنسان أو إنسان إله ! وليسهل قبول قضية القرابان الذي يحفع فداء لخطايا لم ينج منها أنبياء الله أنفسهم !!

وقد كرهوا أشد الكراهة صيحة محمد وهو يقول - بأمر الله -

﴿قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبِّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَرِدُ وَارْزَةٌ وِزْرٌ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَنِسِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١) .

إنني لا أتبع محمدا لأنني وزنت بينه وبين المتنميين إلى السماء والمحدثين عن الله فوجدت كفته أرجح ، إن ذلك يكفي لأنباعه لو كنت من يوازن بين المرويات ، ويؤثر جانباً نزيهاً على جانب متهم . . . !! .

الأمر عندي أن الإيمان مصدره الأول العقل اليقظانُ النَّقَادُ الباحثُ عن الحق فإذا وجده تثبت به إلى آخر رقم .

وقد عرفت الله وامتلاً فؤادي بأنه عظيم ، عظيم لأنى فكرت وفكرت ثم وجدت أن الله الذى آمنت به لا تتوفر الأوصاف الواجبة له إلا في كتاب محمد ! .

القرآن هو الكتاب الفذ الذى لا يعرف غيره عصر العلم و محمد هو الإنسان الذى تتجسد فيه أشواق البشر إلى التسامي والروحانية والارتباط بالله .

وذاك سرّ بقاء الإسلام إلى يوم الناس هذا ، وسر خلوده إلى يوم يبعثون ! مع أن الظروف التاريخية التى اكتنفته تشبه العواصف التى تعرقل سير السفينة ! .

وعندما أرق الماضى أجد الإسلام خلال سنته العشرين الأولى أجهز على الوثنية العربية التى قاومته أشرس مقاومة ، ثم أجهز على المستعمرات اليهودية فى الحجاز وقلّم أظافر اليهود عسكرياً ، وقبلهم فى دولته أفراداً لا يقدرون على كيد ! .

(١) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .

أما الصليبية فإن مقاومتها للإسلام ظلت متقدة النار خلال القرون التي عاشهها منذ ظهر إلى الآن !! أربعة عشر قرنا والخصام لا تفتر حدته ولا تنقص شدته ..

أخذ هذا القتال عنوان الحرب مع الروم ، ثم أخذ عنوان الحروب الصليبية ، ثم أخذ عنوان الحرب بين الأتراك وأوربا ، ثم أخذ عنوان الاستعمار العالمي ، واختفت العناوين وبقيت الحقائق في الكسوف الجغرافية ، التي قادتها المصادرات إلى الأميركيتين من ناحية وقادت إلى الهند وشرق آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية أخرى ..

ثم جاء العصر الأخير ومعه الغزو الثقافي ، والتيارات الدولية المختلفة ، والتفاف الكنيسة حول الإسلام ترید أن توجه إليه الضربة القاتلة !! .

أربعة عشر قرناً تساقطت من حولنا نحل شتى وبقيت الصليبية وحدها تحاول إخماد أنفاسنا ! والدول الاستعمارية هي التي صنعت ولا تزال تصنع إسرائيل ، إن الجُحر الذي نُلْدُغُ منه لم يتغير ، والعدو الذي قاتلنا أيام الرسول في « مؤة » هو هو الذي يقاتلنا الان ، وقد أمسى لا يُخفى ضعائنه ولا أغراضه استهانة بنا . . !! .

عندما زار بابا روما « ساحل العاج » ساءلت نفسها : تُرى : ما الغرض والوضع هناك معروف ؟ المسلمين من ناحية الإحصاء ضِعْفُ الصارى ، ولكن اللغة العربية تموت أمام زحف الفرنسية ! والقوى المادية والأدبية حِكْرُ على أعداء الإسلام ! إن الأيام مُذبحة عن المسلمين إدباراً يقبض الصدر ، بل هم غرباء في أرضهم ! .

وعرفت أن الأحفال الفخمة أقيمت لمناسبة افتتاح كنيسة في العاصمة تُعدُّ من أعظم كنائس إفريقيا ..

قلت : هل يزور المسلمين المستوحشين أحد ليخطبهم في مسجد جامع ؟ لا ! هل هم منسيون ؟ لا .

إنهم محاصرون ! مَنْ حاول زيارتهم مُنْعَنْ ، إما في بلده وإما في بلدتهم ! لأن الأوضاع العامة توجب ذلك ! .

ودرست أحوال المسلمين في فرنسا وإنجلترا ودول أوربية أخرى ! إن ملايين كثيرة هناك تُستقصى من أطراها ومن صميمها ، والمسلمون يفرحون فرحاً أبله بالجماعات القليلة التي تدخل في الإسلام هناك ، وينسون من يُختطف أو يُسرق أو يتلاشى في تيار المادية الجارفة .

ومن أيام التقيت - وأنا خارج من جامعة الأمير عبد القادر - بشاب جزائري يشكوى لي أنَّ أخته قد تزوجها فرنسي يزعم أنه ترك النصرانية ، فقلت له : قد يكون صادقاً .. ! قال : إنه يعتقد ديانة أخرى لم أعرفها ، لعلها « شهود يهوه » وأنا قلق على دين أختي ! وأدركت المأساة ، إن الآف المسلمين متزوجون دون حارس لتخطفهم الأوهام ، أو لتغرقهم الحضارة المادية في عبابها الموار فلما يظهر لهم أثر ..

وفي أوروبا عشرة ملايين مسلم تقريباً ، ذهبوا إما فراراً من أوطان تنكرت لهم ، أو طلباً للرزق ، أو هم أوربيون أصلاء في ديارهم لَوَّتْ أعناقهم الشيوعية - كما حدث في ألبانيا مثلاً - والغريب أن أواصرهم تقطعت ببني دينهم ، ولو لا بعثات قليلة ترسلها حكومة الجزائر إلى أبنائها في فرنسا لقلت : إن المسلمين هناك قد نسيتهم الأمة الكبرى في الشرق .

إن حملات صليبية ماكرة تعمل دون ما ضجة لتذويب المسلمين في الأراضي التي هاجروا إليها وقد أدركَتْ حظاً من نجاح ، وهذه الحملات تتم ما تصنعه البعثات التبشيرية في إفريقيا وآسيا ، والتي سيطرت على التعليم والإذاعة ، وتکاد تصبغ البلاد بالصبغة المسيحية ..

والغريب أن جماهير العرب والمسلمين مذهولة عما يراد لها ، أو مشغولة بقضايا افتعلت افتعلة ، ومن هنا فالمستقبل محفوف بأخطار رهيبة ، فهل نصّحه قبل فوات الأوان ؟

قال لي صديق لم يرقه تفكيرى : لقد فاتك شيء ما كان ينبغي أن يفوتك ! قلت : ما هو ؟ قال : إن عاطفة التدين في هذا العصر وحقيقةه ليست محل القبول والرضا ، والعالم الان يقترب من خمسة مليارات ، ثلاثة أحمسهم بين شيوعي أو وشني ، ومن يدرى ؟ فقد

تقع كارثة أخرى تعصف ببقايا المؤمنين ، على اختلاف ما يديرون من دين ! .
والأفضل أن نداوى الإحن التي خلفتها القرون ، ونصلح ذات البين ، ونتعاون على
إقصاء الإلحاد ، ورد الإنسانية إلى ربه . . . ! .

فكرت غير قليل ، ثم قلت : لا بأس ، إنني أبسط يدي لصلح لا غش فيه ، والعدل
يسع وجهات النظر المختلفة ، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ وَقُلْ آمِنْتْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأَمْرْتْ لِأَعْدِلْ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير﴾⁽¹⁾ .

أيها الصديق لكي يكون الحوار بين الأديان سليما لا تقل للعربي الطريد من داره :
اعترف أولا بسرائيل ثم تعال نصطلح ! علام نصطلح إذا كنت لا تعرف بوجودي ولا
بحقوقى ? .

إن تعلیمات عامة صدرت من جهات لا نحب تسميتها تقول لكل قلة دينية في الشرق
العربي : سودى الكثرة ، وأخضعيها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً إن أمكن ، و موقف
الموارنة في لبنان نموذج لهذا التحدى المعيب .

وهو مثال عمل للطوائف الأخرى يجب أن تقليده فكيف يقع صلح على أساس هذا
التفاوت ? .

إن المسلمين في جنوب السودان يساوون في العدد من استطاع التبشير إدخالهم في
المسيحية ، والمراد الآن وقبل الآن أن تكون الحكومة في الجنوب مسيحية ! ويجب إهار
نظائهم المسلمين وإهالة التراب على حقوقهم ! فكيف يتم صلح على هذا الأساس
الجائر؟ .

(1) الآية : ١٥ من سورة الشورى .

إنه لا يأس بحوار بين الأديان ، بل ذلك ميداننا المفضل ! إن الفرار من المنطق أهادى
وأخذالحسن هزيمة نابها على أنفسنا .

ييد أتنا بداعه لا نقبل الدين ، ولا نسمح لمن يطلب منا أن نسلمه أرضنا وزماننا
وحضارنا ومستقبلنا ، والاستعمار العالى يريد ذلك بصفاقه . . .

في أوربا وأمريكا رجال نشعر بأن هم شرفا ، وأنهم على درجة من سلامه الفطرة وإصابة
الحكم ، وحذالو تلاقينا طويلا مع هؤلاء في مؤتمرات علنية أو سرية ، وتدارسنا كل شيء
في جو من الصراحة والمودة . . .

يا صديقى أنا أعرف أن ظروف المسلمين رديئة وأنهم مُنوا بهزائم موجعة ، على أنى أدرك
سر هاتيك الهزائم كلها ، إنها من عند أنفسهم . ونحو شاءوا لصاروا إلى حال أفضل ،
ومكانة أعز شئ هناك شئ آخر أريد أن أفيض فيه ! .

إن الإيمان نصفان : نصف عقل ، ونصف نقل !! وقد يُعذر من لم يبلغه النقل ، أم
من جحد عقله وسفه نفسه فلا عذر له ! .

قال لي صديقى : ماذا تعنى ؟ قلت له : سبق أن شرحت أنى أعرف ربى بعقلى ، إن
قلبى ينبض بانتظام بين جوانحى ، منْ يحركه ؟ أنا ؟ أنت ؟ ما يحركه إلا الله ! .

إن الأولاد يتكونون في بطون أمهاتهم على نحو رائع ، منْ يصنع المخ وآخواص وسائر
الأجهزة والأعضاء ؟ المرأة ؟ الرجل ؟ منْ إلا الله ؟ إن إنكار الألوهية لون من البهيمية ، وما
أرى الإلحاد إلاّ عَمَى جديراً بالاحتقار كله . . .

فإذا عرفت الله بعقلى فإنى لا أعرف كيف أصلى له ، وكيف أقوم بحقه ، إلا عن طريق
نقل من صادقٍ معصوم .

والوحى الصحيح يؤكّد المعقولات ويستحيل أن يصادمها ، ثم ينشئ عبادات تستريح
إليها الفطرة وتتعامل بها مع الله ، ومع الناس ، فلا تضل ولا تشقى . . .

عندما حضرت الوفاة الأديب الفرنسي « فكتور هيجو » جاءه القس ليشهد ساعته الأخيرة - أو ليغفر له حسب الشعائر الدينية عندهم - وأوى الأديب الكبير أن يستقبله ، قائلا : لا حاجة لي بك ، إنني أو من بالله وقد تصدقت بهالي ..

لقد هزمني هذه القصة ، وشعرت أن هذا الأديب الكبير أقرب إلى الله من كثيرين ، لقد امن بعقله ، ولم يجئه نقل صحيح يستريح إليه وهو أولى بالله من رجل الدين الذي جاءه ! .

وفي أرجاء الدنيا كثيرون من هذا الطراز ، أقروا المعقول ورفضوا المنشوق ، ولهم عذرهم ، وقد تحرك هؤلاء في ميادين العلوم الكونية والحيوية والإنسانية ، وكانت أيديهم الطولى في صنع التقدم الحضارى الذى نشهده ..

وتاريخ الغرب بعد عصر النهضة يحكي الصراع الدموى الذى دار بين الدين والعلم ، والدين والحكم ، والدين والاقتصاد .. الخ ، والدين المشتبك في هذا الخصم ليس الإسلام بداعمة فأين كان الإسلام؟ وكيف غاب عن هذه الفورة الخطيرة؟ .

أكره أن أدفع بالباطل عن قومى ! إن قومى خذلوا دينهم ، وناموا عن مطالبه ، وغلبهم شهوات نفسية وبدنية وغفلات عقلية واجتماعية ، فحققت عليهم كلمة الله ، ودفعوا ثمنا غاليا لانسحابهم من ميادين الحياة الصحيحة .

لقد كان هذا الشمن غزوا عسكريا وثقافيا واجتماعيا في الغرب المتفوق ، ومن ورائه الصليبية التي اصطدحت معه على أن تقوم بخدمته ، ويقوم هو بتركها تؤدي دورها الأقدم .

وكان أن ماجت بلاد الإسلام في فوضى لا ينفع لها غيم إلا حل محله غيم أشد سوادا وأملا بالشرور .

والمدنية الحديثة نشأت من نشاط أرضى ولم تبعث عن وحى سماوى ! من أجل ذلك كانت الأنانية الطابع الأول لحملتها ، وكان نسيان الله وجحد لقائه أمرا مألوفا فيها ،

ورخصت الدماء ، وأهين الضعفاء ، وكثر السكارى ، وشاعت عبادة الجسد ، وانتشرت الأمراض الجسمية والنفسية .

والعالم الان يتربص ببعضه بالبعض الآخر وينخس أن ينتحر في أى لحظة بما يملك من أسلحة الدمار الشامل ! إنه فقير إلى رحمة الله وحنانه ، وأمام أهل الإيمان وأصحاب الوحي مجال ممهود لعمل مثمر إذا شاءوا .

ونحن المسلمين نقدر على اسداء خير لأنفسنا وللناس ، ونعتقد أن لدينا الكثير فهل يُسمح لنا بذلك ؟ أم لابد من اعتبارنا مأكلة الأقواء ؟ واعتبار ما لدينا جملة أكاذيب ؟ .

أنا مستعد لأن أصحب أى قسيس لأية عاصمة كبرى ، ويمنع كلانا ساعة واحدة في أنديتها الكبرى نتحدث فيها عن الله الواحد ، عن المرسلين ، عن الإنسان ، عن المال ، عن الشورى ، عن العدالة الاجتماعية عن الأسرة عن الآخرة عن أى شيء يطرح علينا من حقائق الدين ، ول يكن الحديث على شكل ندوة ، أو على العاقب ، ويمنع فيه منعاً صارماً أى تهجم أو عداوان . .

ولمن شاء أن يتبعنى طائعاً غير مكره ، ولمن شاء أن يتبع صاحبى .

وييمكن أن تعقد مؤتمرات خاصة على أى مستوى يرضاه رجال الكهنوت المسيحي لتتدارس فيها القضايا التي تطرح .

على أن هذا كله لا جدوى منه إذا بقى أولئك الرجال يتوارثون إحن القرون ، ويظلون أفتديهم على بغضه لقرار لها نحو الإسلام وأمته .

ففي هذه الأيام يتنفس الحقد القديم ضد أى دولة ترغب في إعادة التشريع الإسلامي ومن قبل ذلك حوربت اللغة العربية بأسلوب ينتهي لا محالة بإبادتها ، ومن بضع سنين عرف المسيحيون بعثة أن اليهود أبرياء من دم المسيح (!) وأنه لا يجوز أن يلعنهم المصلون في الكنائس ! ما هذا الود الطارئ ؟ .

إن كل ما في العالم من شرور يمكن أن يعالج بكلمة «الله محبة» إلا الإسلام فيجب أن يعالج بأن «الله كراهة» .

على أية حال نحن نعرف أن كهنة الصليبية العالمية راغبون عن الوقوف في وجه مبادل المدينة الحديثة ومظلmalها ، لأنهم يشعرون بأن لها في أعناقهم دينًا ، فقد تناست تاريخًا وعفت عن كثير ، ولم تنبش قبور العلماء والعباقرة الذين قتلتهم حاكم التفتیش .

ثم هي الآن تتمكنهم من ضرب الإسلام ، وهذا التمكين يغفر للمدينة الحديثة كل شيء ولو أهلكت الحرف والنسل . . .

وفت الكنائس المسيحية بعهدها لليهود ألا تسمهم بسوء ، وألا تؤلب عليهم أحدًا ، وظهر ذلك جلياً في أحفال عيد الميلاد ورأس السنة . . . ولم يحدث إلا لغط حول الإرهاب العربي لليهود (!) وعداء اللاجئين المطرودين من قراهم ومدنهم للسلطات التي أكرهتهم على الخروج من ديارهم . . . !

وشيء آخر سمعته والهموم تهاجمني ، لز للجهاد الإسلامي ، وللرسالة التي قامت على سفك الدم . . .

قلت في نفسي : ألا يظفر العرب بالساحة والمحبة اللتين ظفر بها اليهود في هذه الأيام النحسات ؟ هل كانت إساءات المسلمين للمسيح وأمه أشد من إساءات اليهود ؟ ! .

ورجعت للتاريخ فوجدت العجب لقد ألقى الرومان القبض على أحد اللصوص ، وعلى المسيح عيسى بن مرريم بدسائس يهودية .

وكان من المصادفات أن يَحُلْ عيد روماني يمكن فيه العفو عن المجرمين ، ورأى اليهود أن يعفى عن اللص ويؤاخذ المسيح بتهمته . . .

وهكذا القصة كما رواها متى في إنجيله : « قال لهم بيلاطس فهذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح ، قال له الجميع ليصلب ، فقال الوالي وأي شر عمل ؟ فكانوا يزدادون صرامة قائلين ليصلب ، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيء بل بالحرى يحدث شغب .

أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إنى برىء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم ، فأجاب
جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ أطلق لهم باراباس ، اللص المقبوض
عليه ، وأما يسوع فجلده وأسلمه للصلب » (متى ٢٧ : ٢٢ - ٢٦) .

وفي التلمود تجَنَّب سافر على المسيح عليه السلام ، فهو متهم بولادة غير شرعية ، وأمه
الصَّدِيقَة هدف سهام يهودية مسمومة ، والمسيح خارج عن الإيمان ، ومحروم من رضا الله،
وخطائِي ، ويدفع الشعوب إلى الخطيئة وسرق اسم « يهوه » المبارك وادعاه لنفسه ، فعقابه
جهنم وبئس المصير .

وبلغ من جرأة اليهود أن عالما من كبار علمائهم في العصر الحديث وهو « لوب » نشر في
مجلة « الدروس اليهودية » ما يؤيد شتيمة المسيح واتهامه ، وهذا نصه : « أى عجب أن
يتضمن التلمود بعض المذميات في حق يسوع ؟ .

إنها الغريب أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، وان كان لأمر من العجب فلنعجب من
أن التلمود لم يذكر من المذميات أكثر مما ذكر » .

ومما ورد في التلمود عن المسيح :

« يسوع الناصري في الحج بين العار والنار ، وحملته أمه من « باندرا » العسكري
سفاحاً ، والكنائس المسيحية قاذورات ، وأساقفتها كلاب نابحة ، وقتل المسيحى فريضة
على اليهودى ، والعهد مع المسيحى ليس عهداً ملزماً يجب الوفاء به ، وفرض على اليهودى
لعن رؤساء المسيحية » .

فهل فعلنا نحن شيئاً من ذلك ؟ وهل ذكرنا المسيح وأمه إلا بكل شرف ؟ ماذانقول . . .

حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

تدارست مع أحد الإخوة ما نشره المعهد البابوى عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ، وشعرت بأن قدرًا كبيرًا من التحرير والمغالطة تخلل الكتابات المنشورة في هذا الموضوع المهم .

إنه يسرنا أن يقرأ القوم ما لدينا ، وأن يتناولوه بالنقد العلمى ، وفهم الحق في إبداء وجهة نظرهم المخالفة ، وما نشكوا أبدا من هذا المسلك ..

لكن «مجلة الدراسات العربية والإسلامية» الصادرة عام ١٩٥٨ أعدادها ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ تنكبت هذا النهج ، واتخذت طريقا آخر يخدم الحملة على الإسلام ، ويحقق سياسة الفاتيكان في النيل منه ، وتعكير مستقبله .

وقد كان الأسلوب ناعماً ماكرًا ، ولكنه يحمل في طياته ما سوف نراه ..

ترى المجلة أن الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن بدعة احتلقتها دكتور موريس بوكاى ، وأن المسلمين أعجبتهم هذه البدعة المساعدة فطاروا بها هنا وهناك .. ! .

وهذا كلام باطل ، فما كتبه موريس بوكاى أواخر السبعينيات من هذا القرن لم يأت بجديد يفاجئنا بروعته ، بل أكد ما كان معروفا لدينا ، والحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كان شائعاً قبل ذلك بنصف قرن .

كان الأستاذ محمد أحمد الغمراوى سنة ١٩٣٧ يدرس كتابه «سنن الله الكونية» في السنة الأولى من كلية أصول الدين بالقاهرة ، وما أدرى أكان موريس بوكاى ولد أم لا ؟ فكيف يقال : إنه صاحب «مودة» الإعجاز العلمي ؟ .

وقد اعتمدت على كتاب الغمراوى وأنا أتحدث عن الإعجاز العلمى في كتابي «نظارات في القرآن الكريم» المؤلف من ثلث قرن تقريباً، وحديث العلماء عن هذا اللون من الإعجاز مأнос مدروس في كتبنا من زمان بعيد . . .

ومضى المجلة في وهمها عن دور «موريس بوكاى» في الإعجاز العلمى فتعرض ما كتبه الأستاذ أحمد حنفى عن التفسير العلمى للاحيات الكونية وكأنه فيما كتب قد تأثر ببوكاي ، وأنا موقن بأن المحرر يعرف أن كتاب أحمد حنفى صدر أواخر الخمسينيات ، وأنه لم ير بوكاى ولم يقرأ له ، فكيف يتأثر السابق بعشرين سنة باللاحق المتأخر الذى جاء بعده .

لكن هذا اللبس مقصود للأسف ، ولا يعتذر عنه بأن الطبعة الثانية لكتاب أحمد حنفى صدرت عام ١٩٨٠ ، فإن الطبعة السابقة كانت عام ١٩٦٠ م وقد تحدث المؤلف عن أرائه في دروس ومحاضرات كثيرة قبل ذلك ، والعلاقة بينه وبين موريس بوكاى مقطوعة ! .

ثم يوهم المحرر جمهور القراء بأن الإعجاز العلمى - الذى أرخ له على كامل حسين ، وأن له مقالاً منشورة عام ١٩٨٣ م فنَّد فيه هذا الإعجاز وأبطله . . .

والدكتور كامل حسين مات من عشر سنين ، والمقال المنسوب إليه نشر عام ١٩٦١ م وهو مقال نعرف قيمته عندما نعرف كاتبه . . .

كامل حسين طيب بشرى ، كرس حياته في دراسة المذاهب الباطنية من قرامطة ونصيرية وإسماعيلية . . . الخ ، ثم ألف قصة عنوانها «قرية ظالمة» تعتبر من الأدب التبشيرى الحديث ! ومات الرجل والكنيسة راضية عنه . . .

أما مقاله عن الإعجاز العلمى الذى حظى بالثناء المستطاب ، فهو مقال محسوب بالسباب ، وليس له قيمة علمية ، وقد أضفت المجلة البابوية نعوتاً طيبة على الطيب المريب ، وهو كما ذكرنا . . .

إننا سنتحدث عن نهادج للتفسير العلمى أدق وأصدق مما اختار محرر «مجلة الدراسات العربية والإسلامية» التى تصدر بروما ، ولكن قبل هذا الحديث نشجب التدليس العلمى

الذى ظهر جلياً فيما ساقه المحرر من تواريخ للأشخاص والبحوث .

ويظهر أن اللعب بالتاريخ عادة قديمة عند القوم نذكر نموذجاً لها بعيد الأثر في تعمية الحقائق وتضليل الجماهير .

عندما انهزم الرومان قديماً أمام الفرس كانت هزيمتهم من الشدة والخزي بحيث قدر العالم أن الرومان لن تقوم لهم قائمة بعدها ..

لقد فقدوا مستعمراتهم في الشرق الأوسط كلها ، وأرغموا على دفع غرامات فادحة من أموالهم ونسائهم ، وهذا ذل ما وراءه ذل ! .

بيد أن صوتاً فذا في أعماق الجزيرة العربية كذب الظنون كلها ، وباغت الناس بخبر مثير ، هو أن الروم سوف يتتصرون في بضع سنين !! ولم يكن هناك ما يدفع إلى تصديق هذه النبوة العجيبة .

وانتصر الروم في الأمد الذي حددته النبوة وانهزم الفرس انهزاماً سلبياً ما أخذوا ، وكاد يفقدون أنفسهم .

وكان على نصارى العالم أن يستمعوا إلى هذا النبي ، أو يدرسوه سيرته ، أو يؤمن بعضهم على الأقل برسالته !! لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد قال لهم المؤرخ الروماني جيرون إن سبب هذه النبوة هو حقد محمد على كسرى ، بعد أن مزق له رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام (!) .

والرسالة التي يذكرها المؤرخ الكذوب أرسلت إلى كسرى بعد هذه النبوة ببضعة عشر عاماً ! .

النبوة كانت في العهد المكى ، والرسالة الداعية إلى الإسلام كانت في المدينة ، قبل وفاة الرسول بثلاث سنين تقريرياً . . ! .

اللهم إلا إذا كان المؤرخ الروماني يسرد الواقع على نحو ما قال الشاعر العربي المخمور:

أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غدا ، إن ذا من العجب

وندع موضوع اللعب بالتاريخ إلى قضية الإعجاز العلمي نفسه ، فهذا الإعجاز لا يبدأ من فراغ ، إنه يبدأ من حقيقة لا يليق تجاهلها بباحث مخلص ! .

لقد شعر القارئون للكتب القليلة المتنسبة إلى السماء أن القرآن يمتاز بخاصة لا تعرف لغيره ، هي حديثه المستفيض عن الكون ، وحثه القوي على النظر فيه ، ووصفه المتكرر لفاته ، واستخلاصه عظمة الخالق من عظمة المخلوق .

وإنك لستشار طوعا وكرها ، وتنتقل من بناء الكون إلى بنائه البديع عندما تقرأ .

﴿أَلمْ ترِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَ الظَّلَلَ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾^(١) .

﴿أَلمْ ترِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثُمَّرَاتٍ مُّخْتَلِفَاتٍ أَلْوَانَهَا﴾^(٢) .

﴿أَلمْ ترِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْابِعَ فِي الْأَرْضِ . . .﴾^(٣) .

هذه الآيات ومئات غيرها وصفت الملائكة وصفا دقيقا لا تجد في أسواره ثغرة .

وقد وثب العلم في عصرنا وثبتات رحبة ، وعرف من أسرار العالم ما لم يعرفه الأوائل ، واستمع إلى آيات القرآن ، وهي تصف الكون والحياة ، فوجد تطابقا أو تقارب يقطع بأن مصدر هذا الكلام ، هو خالق العالم نفسه ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السُّرُّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٤) .

وماذا يقول علم الأجنحة في وصف القرآن لأطوار الجنين في نشأته الأولى ، ومتابعته المذهلة لمراحل تخلقه ؟ .

لم يكن هناك تصوير بالأشعة يستكشف هذه الخبايا داخل جدار الرحم ، لم يكن هناك علم تشرح يعرض مرتبا وتجاربه على الناس بهذه القدرة الصادقة ! .

(١) الآية : ٤٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ٢٧ من سورة فاطر .

(٣) الآية : ٢١ من سورة الزمر .

(٤) الآية : ٦ من سورة الفرقان .

أَنِّي لِمُحَمَّدٍ هَذَا الْعَدْمُ ؟ إِنَّ أَرْقَى الْحَضَارَاتِ عِنْدَ بَعْثَتِهِ كَانَتْ تَجْهِيلُ هَذِهِ الشَّعْوَنِ .
 فَكَيْفَ بِحَضَارَةِ بَدَائِيَّةٍ تَمَلَّأُ أَكْنَافُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَجْعَلُ الْوَثْنَيَّةَ دِينَهَا الْأَثِيرَ ! ؟ ؟ .
 لَا أَحْبَبُ أَنْ يَسْتَحْسِقَ أَحَدٌ فِي قَوْلٍ : إِنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ طَبٌ أَوْ فَلْكٌ ، فَلِيُسَيِّرْ يَزْعُمُ ذَلِكَ
 عَاقِلٌ إِنَّهُ كِتَابٌ يَهْدِي إِلَى اللَّهِ بِأَسْلُوبٍ يُرْبِطُ بَيْنَ عِقْلِ الْإِنْسَانِ وَعِجَابِ الْكَوْنِ ، مَعَ ارْشَادٍ
 يَهْنِي يَكْمِلُ قَصْوَرَهُ ، وَيُضَيِّطُ مَسِيرَهُ . . .
 وَسَنَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْإِعْجَازُ الْعَلْمِيُّ قَدْ اخْتَصَّ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ غَيْرَهُ مُسْتَبْعَدٌ
 ابْتِدَاءً لِأَسْبَابٍ مَادِيَّةٍ وَأَدِيَّةٍ .

وَقَبْلَ أَنْ نَشْرِحَ ذَلِكَ نَرِيدُ تِبْيَانَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَمْلِكُهُمْ عَاطِفَةً جَامِحةً وَهُمْ يَتَابِعُونَ
 هَذَا الْإِعْجَازَ ، لَقَدْ نَظَرُوا إِلَى دَلَالَاتِ الْكَلَامِ وَفَقَقُ مَقْرَراتِ عِلْمِ أَصْوَلِ الْفَقَهِ وَهُوَ فَلْسَفَةُ
 الْإِسْلَامِ فِي اسْتِبْنَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْ مَصَادِرِهَا ، فَأَجَازُوا مَا أَجَازُوا وَرَفَضُوا مَا رَفَضُوا . . .
 سَمِعْتُ قَائِلًا يَذَكُّرُ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَلَعَهُ غَنَاءً
 أَحْوَى ﴾^(١) يَقُولُ : الْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى الْأَصْلِ الْبَنَاتِيِّ لِلنَّفَطِ ، وَهُوَ مَا يَقْرِرُهُ الْعُلَمَاءُ الْآنُ ! .
 قَلْتُ : دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى مَا تَحْكِي بَعِيْدَةً ، وَلَا أَسْتَطِعُ تَفْسِيرَهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ ! .
 وَسَمِعْتُ آخَرَ يَقُولُ : لَقَدْ سَبَقَ الْقُرْآنَ إِلَى اعْتِبَارِ الرَّجُلِ هُوَ الْمَسْؤُلُ عَنْ نَوْعِ وَلَدِهِ أَذْكُرُ
 هُوَ أَمْ أَنْثَى ؟ وَذَلِكَ آخَرُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ كَشْفٍ ، وَسَاقَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هَاتِينِ
 الْآيَتَيْنِ .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الرِّزْوَجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأَنْثَى ، مِنْ نَطْفَةٍ إِذَا تَنَنَّى ﴾^(٢) .
 وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارِكَ اسْمُهُ ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نَطْفَةٌ مِنْ مِنْ يَمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عَلْقَةٌ فَخَلَقَ فَسَوَى ،
 فَجَعَلَ مِنْهُ الرِّزْوَجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأَنْثَى ﴾^(٣) .

(١) الْآيَةُ : ٤ ، ٥ مِنْ سُورَةِ الْأَعْلَى .

(٢) الْآيَةُ : ٤٥ ، ٤٦ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ .

(٣) الْآيَةُ : ٣٧ - ٣٩ مِنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ .

وتدبرت الآيات في الموضعين ، وشعرت بأن الدلالات واضحة وقريبة على أن ذكرة الولد أو أنوثته تجبيء من ماء الرجل لا من البويضة التي تتكون في الرحم ، وقلت : نعم هذا حق ! .

وعلى آية حال فإن النظريات العلمية لا تفسر بها الآيات القرآنية ذلك ما رأه علماؤنا ، فإن النظريات قابلة للتغيير ، ولا تُعرض القرآن لظنون رجراجة .

أما الحقائق العلمية ، فانها إذا وافقت كتابنا كانت تفسيرا حسنا له ، بل كانت تفسيرا عملياً لقول تعالى ﴿سُنْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَق﴾^(١) .

قال لي بعض الكتاب : ان الباحثين في الفضاء يتعرفون هل الكواكب التي يرصدونها بها ماء أو لا ، فإن وُجد بها الماء كان ذلك مظنة الحياة على سطحها ، أليس ذلك مصدق قوله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) .

قلت : إن الحياة البشرية وغير البشرية على سطح الأرض تعتمد على الماء يقينا ، والآية لا ريب فيها .

وقد تكون هناك حَيَّاتٌ أخرى لأجناس أخرى لا علاقة لها بالماء ، اننا نحن المسلمين نتبع اليقين ، ونأبى الظنون والتخمين ، والإعجاز العلمي له رجاله الراسخون .

وأمثال من قرأت لهم الدكتور محمد أحمد الغمراوى طيب الله ثراه . والدكتور موريس بوکاى زاده الله هدى وتوفيقا .

والآن يجيء الكلام عن الكتب الأخرى التي تنتسب إلى السماء ونتساءل : هل وصف أهل دين ما – سوى المسلمين – كتابهم بأنه معجز ؟ إن التحدي لم يقع إلا بالقرآن وحده

(١) الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) الآية : ٣٠ من سورة الأنبياء .

﴿قُلْ : لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمَثَلِ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١).

أما الكتب الأخرى فلم تنسَ إلى نفسها إعجازاً علمياً ولا بلاغياً ولا نفسياً ، وعرضت ما بها وكفى .

وشيء آخر نتحدث عنه مصارحين : أن الوحي الالهي المتجسد في القرآن ليس به شائبة من صنع بشر ، لكن الأمر الذي استقر عليه القوم في آخر تعاريفهم للوحي أنه اهام من روح القدس ، لا تفك عنه الخصائص الإنسانية عند من يتلقاه ! .

هل يعني ذلك أن كلمات الكتاب المقدس تشبه أقوال الأنبياء ؟ كنت أتمنى ذلك ! .
الذى يبدوا لي أن واضعى التعريف الأخير أرادوا به تجاوز ما استحال عقلاً أن ينسَب إلى وحى سماوى في إصلاحات كثيرة ، أقول : بل ما يستحيل أن ينسَب إلى رجال صالحين !! .

من أجل ذلك توقفت وأنا أقرأ مجلة « الدراسات العربية » التي يصدرها المعهد البابوى وهى تعلق على التفسير العلمى للقرآن الكريم قائمة : « إن هذا التفسير الذى ظهر بين المسلمين هو محاكاة للمحاولة المسيحية التوفيقية بين التوراة والعلم التى وقعت فى القرن التاسع عشر ». .

وهذه جرأة لا نتركها تمر ، فليست بين القرآن والعلم فجوة نحاول ردمها ، ولا مسافة نبغى تقريبها أو محوها ، إنما الفجوة العميقه والمسافة الشاسعة هى بين العلم وبين التراث الدينى الذى تركه كاتبو العهد القديم .

ويستحيل عقلاً ونقلاً أن تنجح أية محاولة للتوفيق بين الطرفين ، إن الخلاف بينهما علمى وعقائدى وأخلاقي وتارىخى !! .

(١) الآية : ٨٨ من سورة الاسراء .

وأكاد أجزم بأن مؤلفي هذا الكتاب جمعت بينهم نية مشتركة في تلطيخ سيرة الأنبياء ، ونسبة المذاكر إليهم ، وإبراز حقيقة الدين - بعد سقوط قادته - كالحة رديئة .

إننا نحن المسلمين نأسى كل الإباء وصف إسرائيل بأنه نصاب مخادع احتال على سرقة النبوة ، وهي حق أخيه عصو كما يقولون ، ومثل أمم أبيه الأعمى اسحاق أنه عصو نفسه ولبس إهاب ضأن ليبدو كثير الشعر ك أخيه ، وقلد صوته .. الخ .

هل النبوة منصب يُسرق ؟ وهل رسول الله لصوص يسلبون الآخرين حقهم ؟ .
ماذا تكون حقيقة الدين بعد ذلك ؟ وماذا يتنتظر من أتباعه إلا أن يكونوا خطافين ؟
وكيف يتصور الناس الألوهية في هذا الجو ؟ .

إن الصورة المثلث للألوهية ، كما ذكرها أحد كتاب العهد القديم أن يحكي للأجيال قصة طريقة ، كان إبراهيم جالسا تحت أشجار البلوط في « عمرًا » ، فنظر بعيداً فوجد الله قادماً يمشي مع بعض الملائكة (!) فهرع إليه وسجد بين يديه ، وقال له : إن كان عبدك يجد نعمة لديك فتعال وتناول الغداء معه !! .

و قبل الرب الضيافة وشارك في أكل عجل ذبحه له إبراهيم الخليل ! ! إنها الوهية عجيبة تلك التي جسدها لنا أحد كتاب العهد القديم ! .

والتفسير العلمي للتوراة في القرن التاسع عشر حاول أن يوفق بين الدين والعلم وهو يواجه هذه الأساطير السقيمة .

وال المسلمين عندما يتحدثون عن الإعجاز العلمي للقرآن إنما يقلدون في هذا القرن العشرين ما فعله كهان القرن التاسع عشر في العالم الغربي ! .

ترى ما فعلوا وكيف وفقو؟؟ .

ولست الآن في مجال استعراض لما نأخذ به الآخرين من تحيط في فهم الألوهية والنبوة ومعنى الوحي ، ومعنى التاريخ .. فذاك أمر له ميدان فسيح ، إننا فقط ننبه محرر مجلة الفاتيكان أن يكون يقطا أو حذرا قبل أن ينال منا بالباطل .

إنه يعلم أن مفكري أوروبا أحصوا مئات الأغلاط في هذه الكتابات ، ورفضوا نسبه قداسةٌ مَا إليها .

قداسة؟ قداسة لنصر يقول : إن الله صنع قوس قزح عند نزول الأمطار كى يتذكر ، فلا يترك المطر يهطل حتى لا يحدث فيضان آخر ، فإنه ندم على الفيضان القديم : إله ذا هل يحتاج إلى منبه !! .

ومن أغرب ما قرأت ما جاء في سفر ((حزقيال)) في الفقرة ١٣ حيث يقول الرب لحزقيال : ((وتأكل كعكا من الشعير على الحُرْءَ الذي يخرج من الإنسان : تخزه أمام عيونهم - يعني بنى إسرائيل - وقال الرب هكذا يأكل بنى إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم التي أطردهم إليها)) .

ترى : ما هى محاولات التوفيق بين العلم والتوراة التي بدأت مع القرن التاسع عشر ؟ وهل هذه المحاولات هى التي نقلدها نحن المسلمين ، عندما نتحدث عن إعجاز القرآن ، ونجعل التفسير العلمي نوعا من التفاسير للوحى الأعلى ؟ .

يؤسفنا أن نقول : إن المحرر لصحيفة الفاتيكان يهزل ، ويتحصن وهو يهاجم القرآن وراء نسيج من بيوت العنكبوت .

وكانها شاءت الأقدار أن تثار للكتاب الذى افترى عليه المفترون ، فإذا نقابة الأطباء فى مصر تدعوا إلى مؤتمر عالمى لبحث الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، والتقى فى القاهرة علماء قدموا من نيف وعشرين دولة ، وقدم فى الموضوع نحو ثلاثة بحث ! .

ورأينا الراسخين فى أهم علوم العصر يستمعون فى وعى إلى ما يقال ، فلما رأوا الصوت الذى انبعث من خمسة عشر قرنا يتحدث إليهم حديث خبير بأسرار الحياة ، عليم بقوى الكون والانسان ، لانت قلوبهم لذكر الله ، فمنهم من ذهب إلى الأزهر يعلن إسلامه ، ومنهم من قرر متابعة الدراسة مع إخوانه ، وهو مبهور بما أفاد ! .

الدكتور (برسو) أستاذ التشريح يقول : إن تحقيقه لبعض الآيات والأحاديث أشعره بأن القرآن وحى الله إلى محمد يقينا .

فمن أين أتت هذه المعارف التي صدقتها كشف العصر الحدثة ؟ ويتسائل الدسور (مارشال جونسون) لماذا لا يكون محمد نبيا ؟ ومعه هذا الكتاب المشحون بالنظارات الصائبة إلى العالم وقواه وأسراره التي تجلت لنا في القرن العشرين .

نقول : هل أحقر منه بالنبوة من نقرأ التراث المنسوب إليهم فلا نجد به إلا مخنة العقل والضمير ، ودسائس الحقد والجهل ؟؟ .

ويقول الدكتور (كيث مور) أستاذ علم التشريح وأحد الخمسة الأوائل من علماء الأجنحة وله مؤلف مترجم إلى ثمانى لغات : إن تصنيفنا لأطوار الجنين لم يعرف إلا أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن .

وقد أعطيت مراحل التخلق في بطن الأم أرقاما وحروفاً أبجدية لا معنى لها ، ولكن الدراسات الحديثة المقارنة لعلم الأجنحة ، وللقرآن والسنة أسفرت عن مصطلحات أخص وأنفع تعتمد على الشكل الذي يمر به الجنين ، شكل النطفة والعلقة والمضغة والعظم وكسوة العظام باللحم ثم طور النشأة الأخيرة .

وعرض الدكتور صورا تبرز هذه الأطوار وفق ما ذكر القرآن الكريم من خمسة عشر قرنا .

نقول : وبحوث اليوم كثيرة ، وبحوث الغد أكثر ، إننى حسنظن بالفطرة الإنسانية مادامت تسترشد بالوحي الأعلى ، وتحرى مرضاه خالقها .

ومصيبة الإنسانية في نظرى من فريقين : فريق يستعلى على ربه أو يفسق عن أمره ، وفريق يُرِّقِّر مراده ويفترى عليه .

وفي بعض الأحيان أبحث عن أسباب العوج السائد ، فأرى الذين قدموا الحق شوهوا وجهه وزهدوا الناس فيه ، وأرى الآخرين هاموا على وجوههم ، ما احترموا فطرتهم ولا أنصفوها .

والمدنية الحديثة تتبع هواها وتتأبى بشدة أن تخضع للدين ! .

ولا يزال الدين جديرا بالازدراء والنبذ اذا كان رجاله يحاربون التوحيد الإسلامي ويبيتون الويالات له ، ويهادنون الاخاد الأحمر والأصفر ولا يشتبكون معها .

ولا يزال الدين أهلا لظنون السوء إذا وجه جهده بجتنون لمحاربة تعدد الزوجات ، وصمت صمت القبور عن شيع الزنى واللواط !! . أليس ذلك ما يفعله الفاتيكان الان ، وما يجتهد رجاله الكبار والصغر لتحقيقه؟ متلهزين الهزيمة التي ألمت بال المسلمين في العصر الأخير لبلوغ مآربهم ..

لقد انطلق العلم وحده منفردا بزمام الإنسانية جماء وحقيقة به أن ينفرد ! مَنْ يَشْرُكُهُ فِي هذه القيادة أو يسبدها دونه ، ورجال الأديان على ما علمنا؟ ..

على أن المسلمين إذا ارتفعوا إلى مستوى الإسلام أنقذوا أنفسهم وأنقذوا الدنيا معهم .

إن العالم اليوم يفكر في الانتحار ، وقد يصييه مسْ ف يقدم على حرب تحصد الأخضر واليابس ! فهل نصّحونحن قبل فوات الأوان؟ ونأخذ على أيدي العابثين بالأديان؟ .

الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ

عندما كان موسى عليه السلام يكافح لتحرير قومه من ظلم الفراعنة واجه متابعه جديرة بالتأمل ، وجُل هذه المتابع كان من قومه أنفسهم ! .

أصدر إليهم الأمر أن يرحلوا من مصر في ليلة موعودة ، وأن يستخفوا تحت جنح الظلام متوجهين شطر البحر الأحمر ، واستجاب اليهود للأمر الذي أصدره قائدتهم ، فلننظر : أكانوا متلهفين للخروج من مصر ؟ أكانوا متعشقين للحرية التي فقدوها ؟ والأمان الذي خرموه ؟ أكانوا كارهين لجوء تذبح فيه الأبناء وتستحيا النساء ويُصب فيه البلاء ؟ . إن هذا ما يتبارى للأذهان .

غير أن الواقع غير ذلك ، فإن بني إسرائيل كانوا قد ألغوا الدنيا واستكثروا للضييم على ححو ما قال أبو الطيب :

من يُنْ يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام !

وقد نبه القرآن الكريم إلى موقف الشعب من القائد الذي يبغى تحريره قال تعالى : «فَمَا آمَنَ مُوسَى إِلَّا ذريةٌ مِّنْ قَوْمِهِ، عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمِلَّهُمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ»^(١) إن بعض الشباب الحديث السن السليم الفطرة هو الذي اعتنق رسالة موسى ، وقرر أن يقاوم معه الجبروت ، ومضى مع أحلام المغامرة ينشد مستقبلاً أشرف ! .

(١) الآية : ٨٣ من سورة يونس .

أما الشيوخ وسواه اليهود فقد قيد مسالكهم الخوف ولم يتهموا للدعوة الخرية ! وقد انكشفت خبایاهم لما قرر فرعون ملاحقة الهاريين من بطشه ، وخرج على رأس جيش كبير ليستعيد قوم موسى إلى السجن الذي فروا منه !! .

كانت مطاردة مثيرة ، اليهود يشتدون نحو الساحل عابرين الصحراء الشرقية ، وفرعون وراءهم يريد أن يدركهم .. ويصف الإصلاح الرابع من سفر الخروج هذا الموقف قائلاً : « فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم ، وإذا المصريون راحلون وراءهم ، ففزعوا جداً ، وصرخ بنو إسرائيل إلى رب وقالوا لموسى : هل لأنه ليست لنا قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ أليس هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلاً : كُفْ عنا فنخدم المصريين لأن خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية » ؟ .

إن هذا الكلام ناضج بالنذالة والجبن واستمراء الدينية ، والواقع أن الشعوب التي بُرحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقامها بين عشية وضحاها ، إنها تحتاج إلى مراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأني الصبور حتى تُنْقَه من بلائها .

من أجل ذلك قرر المصلحون بعد تجارب مريرة أن الزمن جزء من العلاج ..

وقد رأيت بعد تدبر عميق أن الشعب الإسرائيلي أول أمره لم يتبع موسى عن عزة نفس أو صلابة يقين ، لعله تبعه عن تجاذب عرقي أو تعصب قبلي ، ثم استفاد الأخلاق والإيمان في مراحل متأخرة .

وملاحظة العقل اليهودي ، والتاريخ اليهودي تؤكّد هذا الاستنتاج !!

ونحتفظ بهذه التبيّنة الآن لنعرف نهاية المطاردة بين فرعون وموسى ! لقد صوّرها القرآن الكريم في هذه الآيات ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ! قال : كلا ، إن معى ربّي سيهدين فأوحينا إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان

كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين » (١) .

إن الله لم يخذل نبيه ، بل سانده بقدرته الخارقة ، ولم يترك الجبارية ليستأنفوا فسادهم في الأرض ، بل أخذ أنفسهم بضربة ما توقعوها فقط .

ونظر بنو إسرائيل فوجدوا أنفسهم سالمين على الشاطئ الآخر ، كما أحسوا أن قتلة الأمس قد طاحوا ، فلا عدوان عليهم بعد !! ..

فبماذا استقبلوا هذه النعماء الغامرة ؟ وماذا فعلوا لسدية الحليل ؟

لقد تيقظت في أنفسهم الوثنية ، وأعجبتهم عبادة الأصنام ! فتقديموا إلى نبيهم في بلاده هائلة ليجعل لهم صنما ! قال تعالى » وجاؤنَا بَيْنِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرِ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى اجْعِلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ ! قَالَ : إِنْكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، إِنْ هُؤُلَاءِ مُتَّبِّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، قَالَ : أَغْيِرُ اللَّهُ أَغْيِرُكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٢) .

وأى فضل أعظم مما تم ؟ أن يرثوا الأرض ، ويغلبوا العدو ، ويُمْنَحُوا فرصة السيادة ؟ بيد أن شيئاً من ذلك لم يغير خسنتهم إن أثقاهم النفسية حطّت بهم في مكان سحيق ..

وجاء الاختبار التالي ، فإن الله لم يكلف اليهود بمحاربة فرعونة مصر - ومحاربة الطغاة مطلوبة حيث كانوا - إلا أن الإسرائييلين كانوا أقل وأذل من ذلك ، لقد كلفوا بمحاربة الجبارية الذين يسكنون فلسطين ، ووعدوا بأنهم في هذه الحرب سوف يتتصرون .. .

وجزع اليهود لهذا التكليف ، ولم يطمئنهم هذا الوعد ! إنهم أحقرن الناس على حياة ،

(١) الآيات : ٦١ - ٦٦ من سورة الشعرا .

(٢) الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ من سورة الأعراف .

وهيئات أن يعرضوا أنفسهم لخطر ! كيف يُطلب منهم قتال ؟ .

يقول لي الأمير بغير جرم تقدم ! . حين جَدَّ بنا المراس !

فهالي إن أطعتك من حياة وما لي بعد هذا الرأس !

جاء في القرآن الكريم على لسان موسى ﷺ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنما لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴿١﴾ .

ووصف التوراة حال الشعب اليهودي عندما سمع هذا التكليف فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ! وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر الشعب على موسى وعلى هارون ، وقال هم : ليتني امتننا في أرض مصر ! أو ليتني امتننا في هذا القفر ! لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف ؟ .

وكان لابد من قرار إلهي قاطع ..

إن هذا الشعب يحتاج إلى تربية طويلة الآماد ، تكبح جماحه وتقتل رذائله ، وتفتح بصيرته على لون آخر من الحياة الرفيعة ، والإيمان بالله واليوم الآخر ..

فلتكن سيناء مصيدة محكمة الجدران يضطرب داخلها ، ويعيش وراء حدودها لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد ، ولبيق على تلك الحال أربعين سنة ! .

أربعين سنة يهلك فيها الذين شاخوا في الفساد ، ويتدبر أمره في سجنها الطويل من عشوا لا يفكرون إلا في ماربهم ! وستنضج خلاها الذرية التي آمنت بموسى ، وتبلغ مرتبة الرجولة التي تصرف في نفسها وفيها حولها . . .

أربعين سنة يخرب فيها من كانوا يهمسون بالحق فتكمم أفواههم ! .

إن الأفراد المدمنين للمخدرات يحتاجون إلى مستشفيات تفني فيها عاداتهم السيئة وتحيا

(١) الآيات : ٢١ ، ٢٢ من سورة المائدة .

فيها عادات جديدة تصحّ بها أجسامهم وأعصابهم ، فكيف بأمم تواضعت على تقاليد رديئة وأعراف فاسدة؟ .

إن هذه الأمم محتاجة إلى جوّ جديد تتنفس فيه هواء أنقى ، وتسمع فيه إلى دعاء الحق وهم يهدونها سواء السبيل . .

وقد طالت المدة على بنى إسرائيل في سيناء ! مات في هذه الفترة موسى وهارون ، وتركا وراءهما شعباً يتولى القدر تأدبيه ، ويتردّج بشتى الوسائل على رفع مستواه . . ولم يكن من هذا بدّ ، إن الأمم لا تترك السفوح إلى القمم بكلمة عابرة من واعظ مخلص ، أو مدرس بصير ، الزمن جزء من العلاج .

استوقفتني في هذا المعنى فكاهة ذات مغزى : قيل إن ثعلباً جائعاً انطلق يبحث عن طعام ، فرأى من سرداد طويل إماء مشحوناً بها لذّ وطاب ، فوثب داخل السرداد الضيق وتلطف حتى بلغ الإناء ثم أخذ يكرع منه حتى امتلأ ، وحاول العودة من حيث جاء فعجز ، لأن بدنها انتفخ فما يستطيع التقدّر ! ولقيه في محبسه هذا ثعلب عجوز عرف القصة من بدايتها ، فقال للثعلب الصغير : ابق في مكانك هذا حتى تجوع وتعطش وتحفّ وتنحّف ، وعندئذ تقدر على الخروج ! قلت ضاحكاً : الزمن جزء من العلاج . .

لكن ما تكون عليه حال الدنيا خلال هذا الزمن المفروض؟ إن الجبارين الذين أمرّ بنو إسرائيل بمقاتلتهم سيقولون مفسدين في الأرض ينشرون في أرجائهما الكفر والذل ، سيقولون كذلك عشرات السنين ! فكيف ترضى الأقدار بهذا العوج؟ .

وأجيب : لابد من وارث شريف للحضارة المعتلة ! وإذا كان حملة الوحي الإلهي ليسوا أهلاً لهذه الوراثة فهيهات أن يقودوا . . سواء حملوا التوراة أو الإنجيل أو القرآن . .

وقد تنبأت بأن المدنية الحديثة سوف تبقى عصراً آخر لا أدرى مدة ، سوف تبقى مع كفرها باليوم الآخر ، ونسيannya الوضيع لله ، وظلمها للضعاف والملوّن ، وتهبّتها في طلب الشهوات بكل وسيلة .

لماذا ؟ لأن حملة الوحي يفقدون من الناحيتين الفكرية والنفسية مؤهلات القيادة ، بل أعرف - وأنا عربي أعيش بين العرب - أن لدينا رذائل من نوع آخر لا تقل عن رذائل المعطلين والمثليين ، يستحيل معها أن تكون أهلاً للصدارة ، بل يستحيل معها أن يقع زمام القافلة البشرية في أيدينا ..

إن فساد المبعدين عن الله ، الجاهلين بحقوقه ، سوف يعلل بأنهم لا إيمان لهم ..
أما فساد المتدينين فإنه يرتد إلى الدين نفسه بالنقض ، ويحير عليه تهمًا هو منها براء ، فحكمة الله واضحة في تأخير المتدينين الجهلة وحرمانهم من السلطة .
والأمة الإسلامية منذ بضعة قرون تدرج إلى أدنى ، والمصلحون الذين هم شهداء عليها يوم القيمة لا يلقون منها إلا عتنا ، وقد فقدت في أثناء هذا التدرج أمرتين جليلتين :

أولهما الشمائل الإسلامية التي اختصت بها الرسالة الخاتمة .
والآخر الملوكات الإنسانية التي تتمتع بها الشعوب الراقية ، والتي تجعلها سباقاً في ميادين الحياة المادية والأدبية ..

أذكر أنه جاءنى يوماً أحد الدعاة في حال من الغضب الشديد يقول لي : أترى إلى حكومتنا وهى تدعى إلى تحديد النسل ؟ يجب أن تنضم إليها في محاربتها !
قلت له وأنا مترافق : إن التحديد المقترن لا يحل المشكلة القائمة ! إن المشكلة تكمن في عدم وجود الإنسان السوى ، والمجتمع الناشط .

قال لي : إن تعاليم الإسلام هي تكثير النسل .. قلت .. له : نعم ولكه تعاليم أخرى في تكبير الشغل ! قال : ماذا تعنى ؟ قلت : لماذا تريد الزواج والنساء الكثير على أن يقوم غيرك بالإإنفاق على زوجك وولدك ؟ إنكم لا تعمرون الأرض وتشرونهما كما أشارها غيركم وعمرروها ، إنكم لا تستخرجون خيرات الأرض من خبایاها وظواهرها كما استخرجها غيركم من أنحاء البر والبحر !! .

إنكم بدوافع الرغبة الحيوانية تصيرون في طلب الزواج والأولاد ، وتطلبون الكثير الكثير ، فعلام يدل هذا ؟ على أن العقل الإسلامي يعرف رغبته ويسمع صوتها ، ولكنه لا يعرف واجبه ولا يلبي نداءه ! .

ثم استتليت : لا الشعب يدرى ، ولا السلطة تدرى ! ظلمات بعضها فوق بعض !! .

إن المثال السابق سنته إثر واقع عرض لي وأنا أكتب الآن ، وهو يخدم الفكرة التي أريد إبرازها ، وهي أن عمل الأمم لا تداوى بالارتجال السريع ، والرغبة النزقة .

والشبان الذين يظنون الإسلام يمكن أن يقوم بعد انقلاب عسكري أو ثورة عامة لن يقيموا إسلاما إذا نجحوا ! فإن الدولة المحترمة وليد طبيعى لجتماع محترم ، والحكومة الصالحة نتيجة طبيعية لأمة صالحة ! أما حيث تتكون شعوب ، ماجنة وضيعة فسيتولى الأمر فيها حكام من المعدن نفسه ﴿وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون﴾^(١) .

والاتجاه إلى الجماهير لغرس العقائد وتزكية الأخلاق وإنشاء تقاليد شريفة ، وإقامة شواخص ماجدة تربو إليها البصائر ، وإقامة الصلاة جماعة بعد جماعة ، أعني وقتا بعد وقت من الفجر إلى العشاء ، وتحصين الرجال والنساء ضد الانحراف والانحلال ، والتغلغل في الأسواق والميادين والمنظمات والنقابات لإنجاح كلمات الله وإنفاذ وصاياه .. ذلك كله كان طريق الأنبياء وحوارييهم ومن نهج نهجهم ..

ولم تقع معركتنا بدر والفتح إلا بقدر أعلى انساق إليه المسلمون دون خطة سابقة أو إعداد مبيّن .. !! .

أعرف أن عددا من الحكومات مرتدٌ عن الإسلام يقينا ، وأنه لن يدّخر وسعًا في مقاومة المد الإسلامي وفتنة أهله ، وعلاج ذلك يتم بالتزام الخط الذي رسمه الأنبياء ، والصبر على

(١) الآية : ١٢٩ من سورة الأنعام .

لأوانه وضرائه ، فهو واز طال المدى - أقصر الطرق إلى الوصول ، وأولاها برعاية الله .
وأبعدها عن الأطهاع والتشبهات ..

ربما نحسين هذا الخطأ بعد عن المخاطر وأقرب إلى السلامة ، إنه صعب التكاليف ثقيل
دأب ، . . . وصدق رأي عبد الله الإسلام يرقبون هذا الخطأ بحذر ويرون أصحابه هم الأعداء
ال الحقيقيون هم .

إن قصة خدمة الإسلام عن طريق الانقلابات والثورات راودت أناساً هم إخلاص
وليسوا هم تجربة . ولم تنجع من سينين طويلة هذه المحاولات . ورأى أنها لون جحث إلى
حين ، ثم يبدأ الجهاد لتنظيف الشعوب من أقذائها ، وإحداث تغيير جذري في أخلاقها
وعاداتها ! أى أننا سنرجع إلى الإصلاح الشعبي عن طريق الشعب نفسه لا عن طريق
الأوامر الرسمية .

نست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة ، وإقرار المعروف ومحو المنكر ، وإنى أعلم
أن الدولة جزء من الدين . وأن أجهزتها الفعالة جزء من شعب الإيمان السبعين . . .
وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يماري فيها إلا جاهل أو جاحد . . . ! .
وهذا كله لا يلغى ولا يوهن عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات
الحسنة ، وفي إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلدية ، وفي فرض رقابة
دقيقة على أجهزة الحكم ، وإبطال شرعيتها إن هي نسيت وظيفتها أو جاوزت حدودها . .
إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة ، وهي يدها التي تحقق بها ما تبغي ،
وقدمها التي تسعى به إلى ما تريد . . .

بيد أن ضراوة الطبع البشرية السافلة قلبت هذا كله رأساً على عقب ، وأمكنت ناساً
من عبيد ذواههم أن يفهموا الحكم على نحو آخر ، إنهم لم يفهموه عبادة لله بل سيادة على
الآخرين ، ولم يفهموه أمانة ثقيلة العبء بل فهموه مغناً لذيد الطعم ، وتطاولت هذه

الخان على الأمة المنكوبة فأصابها من الضياع ما أصابها

كان رسول الله ﷺ يعلم أن وضع قريش بين القبائل العربية جعل أهؤها تندفع إليها . و يجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتولي السلطة ، فأحب أن يشعرها بما لها وما عليها لترغب و ترهب . روى أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري قال : « قام رسول الله ﷺ بباب بيت فيه نفر من قريش ، وأخذ بعضادتى الباب ، فقال : هل في البيت إلا قرشي ؟ فقيل : يا رسول الله غير فلان ابن أختنا ، فقال : ابن أخت القوم منهم ! ثم قال إن هذا الأمر في قريش ما إذا استرحوا رحموا ، وإذا حكمو عدلوا ، وإذا قسموا - يعني المال - أقسّطوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عذر » أى لا تنفعه توبة ولا فداء .

وقد قامت لقريش دولة بل دول في المشارق والمغارب ، فهل راعت شروط الاستخلاف . أم جرأت على الإسلام وأمته المتابع . . . ؟ .

لقد لبث الحكم في أيدينا أحقابا ، فلما لم تحسن الأمة الإفادة منه في دعم رسالته ورفع رايتها ، انتزعه الآخرون منها ،وها هي ذى تلهمت لاستعيده .

وهو إن شاء الله عائد إلينا طال الزمان أو قصر ، غير أنه لن يعود حتى تختفي من بيننا أوهام كثيرة في فهم معنى السلطة ، وحتى ترقى أمتنا مادياً ومعنوياً فتكون الدولة في يدها خير الجماهير لا لإرضاء فرد مغزور . .

إن فن الحكم في العالم المعاصر قد ارتقى إلى أوج بعيد ، وفي إنجلترا مثلاً يستطيع عامل في أحد المناجم أن يجاهد الحكومة دون أن تخالجه ذرة من قلق ! وقد ينتصر أو ينهزم فلا يزيد نصر ولا تقصه هزيمة ! .

ولو وقع ذلك في بعض الدول الإسلامية لأمر الحاكم بقطع عنقه . ولم ير الدهماء على جسده الملقي يقولون : ما دخلك يا صعلوك في سياسة الملوك ؟ .

إن الشعب والحكومة معا دون مستوى الإسلام الذي يتعمون إليه ، بل هم والحق يقال عار عليه ! لقد اختفت تحت أطباق الشرى تقاليد الخلافة الرشيدة ، وبقيت في العقل الباطن للدهماء تقاليد السلاطين الذين هم ظل الله في الأرض ، وفتاوي العلماء الذين توافقوا بقبول الأمر الواقع ، أو بالتعبير الفقهي الخاضع لمن نالوا الحكم بالغلبة والقهر . . ! .

ثم كان من احتاك المسلمين بغيرهم من أهل الأرض ، أن ظهرت وطبقت فلسفة الديمقراطية ، ورأى من لهم فقه وتقوى أنها قرية من « الشورى الإسلامية » فكيف انتقلت إلينا « ديمقراطية » الغرب ? . .

إن الحكم الفردي صالح بينها وبين رغبته ، ويستطيع الحاكم « المهم » في بلاد الإسلام أن يظل عشرات السنين ، يُنتخب هو وحده لا غير ، عشر مرات أو أكثر ما دام حيا . . ويقول هذا الحاكم للمتدينين هذه هي الشورى التي تnadون بها ، ويقول للناس من وراء الحدود ، أنا وليد انتخابات حرة ، وإرادة شعبية .

والأرض والسماء يعلمان أن هذا كذب وزور . .

والأمر يحتاج إلى تغيير جذري كما قلنا في كيان الأمة وعقلها وضميرها حتى لا تمر هذه المهازل أبدا ..

ويضحك أولو الألباب ومن حقهم أن يبكون عندما يسمعون متحدثا باسم الإسلام يصحح هذه الأوضاع ! .

هل تحتاج أمتنا إلىأربعين سنة تصح فيها كما احتاج بنو إسرائيل ؟ لا أدرى ! كل ما أقدر على قوله أن الإسلام لا يقبل حكمها عسكرياً ، ولا يعرف خرافه : « الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع يزيد » وأن على دعوة الإسلام من خلال تعاليمه لا من خلال تقاليد عصور الانحطاط والفوضى في تاريخه المديد .

عليهم أن يعدُّوا قتيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شهيداً أغر الجبين لا صعلوكا يقاوم السلاطين ، فإنهم بهذا المنطق الجبان لن يكونوا مسلمين ! ولن يصلحوا القيادة أنفسهم بلْهَ أن يقودوا العالمين .. ! .

وصلة الاقتصاد بالسياسة وثيقة ، ومراقبة سير المال بين جماهير الناس لابد منها ، وتحديد موقف الحاكم من المال العام شارة كل دولة محترمة .

و قبل أن نشير إلى ما يقع في بلادنا الإسلامية نريد أن نثبت نموذجاً من الخلافة الراشدة يوضح طبيعة الحكومة الإسلامية والسمة البارزة لحياة الحاكم المسلم .

كان عمر بن الخطاب مرموق المكانة في الجاهلية والإسلام فلما ولَّ الخلافة ، واتسعت رقعة الدولة في عهده ، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة ، لوحظ عليه أنه حريص على استصغار شأن نفسه سراً وعلنا ، وعلى توكيده أنه رجل لولا فضل الله ما كان شيئاً يذكر.. !! .

كان عمر مع قافلة من الناس يمرون بشعاب « ضجنان » - جبل قريب من مكة - فسمع يقول : « لقد رأيتني في هذا المكان ، وأنا في إبل للخطاب وكان فظاغليظاً أحتطب عليها مرة ، وأختبط عليها أخرى ، ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتي ليس فوقى أحد ! ثم تمثل بهذا البيت :

لا شيء فيها ترى إلا بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد !

وخرج عمر يوماً حتى أتى المنبر فشوهد عليلاً ، وكانوا قد وصفوا له عسل النحل ، وفي بيت المال عُكَّةً - آنية صغيرة - فقال للناس : إن أذنتم لي فيها أحذتها ، وإلا فإنها على حرام ، فأذنوا له فيها .. !! .

وكان عمر يؤكد أنه ما قبل الخلافة إلا رجاء أن ينهض بما لا يقدر غيره على النهوض به ، ولو لا ذلك لنأى عنها ، وفي ذلك يقول : « ليعلم من ولَّ هذا الأمر من بعدي أن سيريه عنه القريب والبعيد ، وإنى لأقاتل الناس عن نفسى قتالاً ! ولو علمت أن أحداً من

الناس أقوى على هذا الأمر منى لكتن أن أقدم فيضرب عنقى أحب إلى من أن أتولاه . . .
 وقال عمر للناس يوما : « أنا أخبركم بما أستحل من مال المسلمين ! يحل لى حلتان ،
 حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أحجج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى
 كقوت رجل من قريش ليس بآغاهم ولا بأفقرهم . . ثم أنا بعد رجل من المسلمين
 يصيبني ما أصحابهم » .

وررووا أن الربيع بن زيادة الحارثي وفدا على عمر بن الخطاب فأنس إليه عمر وأعجبته
 هيئته ، فشكى إليه عمر طعاما غليظا أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ، إن أحق الناس
 ب الطعام لين وملبس لين لأنك ، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه ، وقال أما والله ما
 أراك أردت الله بمقاتلك ، ما أردت إلا مقاربتي ! وبحك ، هل تدرى ما مثلى ومثل هؤلاء -
 جماهير الناس - ؟ .

فقال الربيع : ما مثلك ومثلهم ؟ قال عمر : مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل
 منهم وقالوا له : نفق علينا ! فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين
 قال : فكذلك مثلى ومثلهم . .

ثم قال عمر : إنى لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ^(١) وليشتموا أعراضكم ،
 ويأخذوا أموالكم ! ولكنى استعملتهم ليعلمونكم كتاب ربكم وسنة نبيك .

فمن ظلمه عامله ^(٢) بمظلمة فلا إذن ^(٣) له على ليرفعها إلى حتى أقصه ^(٤) منه ! فقال
 عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدَّب أمير رجلاً من رعيته أقصُّه منه ؟ فقال

(١) جلودكم .

(٢) رئيسه أو أميره .

(٣) يحيىنى تؤالىبلغنى شكواه .

(٤) أقصى بضم الهمزة وتشديد الصاد آخذ له الحق من الذى اعنى عليه .

عمر : وما لِي لَا أَقْصُهُ مِنْهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يُعَصِّي نَفْسَهُ ؟ وَكَتَبَ عَمَرٌ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ : لَا تُضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَنَذِلُوهُمْ ! لَا تُخْرِمُوهُمْ ! لَا تُجْمِرُوهُمْ (١) فَنَفْتَنُوهُمْ ، وَلَا تُنَزِّلُوهُمْ الْغِيَاضَ (٢) فَتُضْيِعُوهُمْ ! .

تُلْكَ عَلَاقَةُ الشُّعُوبِ بِحُكَّامِهَا فِي تَعَالَيمِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ نَكَبَتِ الْجَمَاهِيرُ فِي أَقْطَارِ عَدَةٍ بِرِجَالٍ مُتَرْفِينَ اسْتَبَاحُوا الْمُسْعَفَاءَ ، وَأَذْلُوا مِنْ أَعْزَىِ اللَّهِ ، وَأَعْزَوُهُ مِنْ أَذْلَىِ اللَّهِ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمْ ثُورَاتٌ مُحْنَّقَةٌ رَكِبَ مَوْجَتَهَا شُبَانٌ مُغَامِرُونَ بِاسْمِ الْاِسْتَرَاكِيَّةِ الَّتِي تَنْصَفُ الشُّعُوبَ وَتَحْقِيقُ الْعَدْلَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَمَاذَا كَانَ ؟ .

دَخَلَتِ الشُّعُوبُ فِي مَحْنٍ مُتَابِعَةً أَفْقَدَتْهَا دِينَهَا وَدُنْيَاهَا مَعًا ، وَأَنْزَلَتْ بِهَا هَزَائِمَ عَسْكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ كَسَتَ الْوَجْهَ بِالْقَارَ وَالْعَارِ ! .

رَفَعَ أُولَئِكَ الْمُغَامِرُونَ شَعَارَ الْعَرُوبَةِ بَعْدَ تَجْرِيَدِهَا مِنِ الْإِسْلَامِ ، وَاتَّبَاعُهَا الْمَذَاهِبُ الْمُغَيَّرَةُ عَلَىِ بَلَادِنَا مِنِ الشَّرْقِ الشِّيُّوْعِيِّ أوِ الْغَربِ الْصَّلَبِيِّ ، وَأَكْرَهَتِ الْجَمَاهِيرُ إِكْرَاهًا عَلَىِ قَبُولِ الشَّعَارِ الْجَدِيدِ .

وَكَانَ بِالْقَادِهِ الْجَدِيدِ جُوْعٌ شَدِيدٌ إِلَىِ الظَّهُورِ وَالْعَظَمَهُ ، كَمَا كَانَ بِهِمْ جُوْعٌ إِلَىِ الرَّفَاهَهِ وَالْبَذَخِ فَإِذَا قَصْوَرُهُمْ تَرَعَ بِالْمَلَذَاتِ وَأَهْلُوْهُمْ يَمْرُحُونَ فِي فَنُونِ الْوَجَاهَاتِ وَالْمُتَعَ . .
وَلَا كَانُوا خَالِيْنَ مِنِ الْمَوَاهِبِ الرَّفِيعَهِ وَالْتَّجَارِبِ الْمَفِيدَهِ ، فَقَدْ أَسَاءُوا النَّقْلَ وَالْاقْتَبَاسَ ،
وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ سُوفَ يَنْهَضُونَ بِالْبَلَادِ صِنَاعِيًّا ، فَأَضَاعُوهُمْ زَرَاعِيًّا وَصِنَاعِيًّا . .

وَكَانَتْ نَتْائِجُ انْقِطَاعِهِمْ عَنِ اللَّهِ ، وَجَهَالَتْهُمْ بِالْحَيَاةِ ، أَنْ خَذَلَتْهُمْ قَوَانِينَ الْأَرْضِ

(١) تُجِيِّعُوهُمْ ، وَتَنْغَصُوا عِيَشَهُمْ .

(٢) لَا تَجْعَلُوا الْجَنُودَ يَبْتَدَعُونَ عَنِ نَسَائِهِمْ مَدَهْ طَوِيلَهِ فِي مِيَادِينِ الْقَتَالِ إِنْ ذَلِكَ يَغْرِيَهُمْ بِاِقْتَرَافِ الْفَوَاحِشِ ! .

(٣) وَقَدْ أَثَبَتَ هَذَا النَّصُ فِي كِتَابِي «الْإِسْلَامُ وَالْأَوْضَاعُ الْاِقْتَصَادِيَّهُ» فِي سِيَاقِ مَهْمَمٍ .

وبركات السماء فإذا العرب والمسلمون يقعون في ورطات رهيبة وتحتاجهم هزائم مذلة في كل ساحة .

وما عسى أن يفعل القدر لرجل يخطب في الحشود المسوقة إليه فيقول وهو يبعث بين أصابعه بقلم : ماذا فعل محمد للناس ؟ محمد (!) هكذا يُذكر صاحب الرسالة العظيم (!) وتصورت مَعْزَة خرجت من مربضها لتقول للشمس : اغربى إنك ما تصنعين للكون شيئاً . . . ! ! .

وزعيم آخر نسى كل النسيان أنه كان في طفولته يجرى وراء جحاش القرية ثم صيرته الاشتراكية زعيم فإذا هو لا يمتنى في تنقلاته إلا الطائرات السمعية كثراً عن أعظم السيارات .

وآخر ، وآخر . . . ما أكثر الأصفار التي ظنت نفسها ألوفاً في أرض الإسلام اليتيم ! والجماهير تنظر في بلاهة ، وقد حبسها في موقفها السلبي حب الدنيا وكراهية الموت وإخلاص الحق وعشق الشهوات . . .

إن رسالتنا الكبرى قاعدتها أمة مؤمنة بها حرية على أداتها الأولى جهاز الحكم فيها وقد تكون الأداة قاصرة ، أياماً أو شهوراً ! أن تكون الأداة مضادة لرسالة الأمة منسلحة عن وحيها ، والأمة نفسها لا تعنى ولا تتحرك ، فالأمر يتصل بالقاعدة نفسها . . . ! والإصلاح الأول لا يتوجه إلا إليها . . .

من أجل ذلك أهيب بالإسلاميين أولى الغيرة على دينهم لا يضيعوا وقتاً في جدال ، وألا ينخدعوا عن فساد الموضوع بفساد الشكل ، وأن يتوجهوا إلى أمتهم ذاتها يعالجون عشرات العلل الكامنة والوافدة التي تنخر في كيانها وتباعدوها عن كتاب ربها وسنة نبيها .

إن الحالين بانقلاب عسكري يجب أن يستقيظوا وإلا كانوا هم أنفسهم قسماً من المرضى ! لقد تدبرت أحوال دول ما تزال تعبد الأصنام فووجدتها ووصلت إلى حد الاكتفاء

الزراعى ، وقفَت إلى الصناعات الالكترونية ، وفجرت القنبلة الذرية ، واستقرت فيها الأنظمة الديمقراطية ، ورجعت البصر إلى أمتى فوجدها دون ذلك كله ، فازداد حسنى بخطورة ما انتهينا إليه ! .

بل لقد تأكد لدى أن الحضارة الغربية - بشقيها المتنافرين - قد تبقى عصراً آخر لا يعلم إلا الله مده ، ما بقى المسلمون رسمياً وشعبياً على هذا المستوى من الإسفاف في نواحي حياتهم الفردية والاجتماعية . . ! لأنهم لن يصلحوا بديلاً لوراثة الأرض ! .

إن الدين كما درسته في كتاب ربى إيمان وإصلاح لا نفاق وإفساد ! ألا تقرأ قوله تعالى ﴿وَمَا نَرْسَلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسِهِمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ (١) .
ما أحل شعار الحكم بما أنزل الله . .

هل تحكم بما أنزل الله في نفسك ؟ وفي بيتك ؟ ، وبين جيرانك وإخوانك ؟ وفي عملك . . ؟ .

لقد تقلبت بين طوائف كثيفة ، وبلوت الكبار والصغر ، فشعرت أن الناس عندما يتخلّون عن مشاعر الحب والرحمة ، وتسبّد بهم نوازع الأثرة والتکاثر ، يتحولون إلى وحوش مرهوبة الفتک ! .

أين كلمة الرسول : « لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تُحَبِّبُوَا » ؟ إن فقدانها لا يسُدُّ مسداً شئ ، وشرائع الحدود والقصاص ما منها بُد ! بيد أنها لا تغنى أبداً عن شرائع الأخلاق وتقالييد الحنان والأدب والرفق . .

والحكومات تستبعد من عالم القانون نصوصاً دينية لا ريب فيها لأن الصلبيّة والشيوخية قررت إماتة هذه النصوص ، وسوف تعترضان محاولات بعث الحياة في هذا التراث . . !! .

(١) الآياتان : ٤٨ ، ٤٩ من سورة الأنعام .

حسنا ، فهل يتحقق الإسلام عندما يطبق المسؤولون في العالم الإسلامي هذه الشرائع ؟ إن الذين جاءوا بطريق غير إسلامي لن يحسنوا الحكم بما أنزل الله ! والذى سرق منصبه بطريق التزوير أو الاغتصاب لن ينصف الإسلام يوم يقطع يد لص صغير ، كل ما حدث أن اللص الكبير قطع يد لص ضعيف ..

الإسلام كُلُّ لا يغنى بعضه عن بعض ، والحكومة فيه إفراز طبيعي لأمة مؤمنة ، أمة اختارت الأكفاء والأصلح ، وائتمنته على دينها ودنياهَا ، ووضعيتها تحت رقابتها ، وهذا حق مطلق في تناحيته يوم تشاء .. !

الشعوب الطبيعية عرفت ذلك ونفذته جزءاً من منطق الفطرة ، أعني منطق الإسلام ،
وهل الإسلام إلا الفطرة السليمة ؟ .

إن غيّرنا أقرب إلى تعاليم الإسلام في مجال الحكم ، وإن كان بعيداً عنه في مجال الاعتقاد ! .

وكذلك جنرال « ديفغول » الذى مسح العار عن وطنه فى أيام كالحات ، وقاد فى المنفى حرب مقاومة انتهت بالنصر ! لقد قال له الفرنسيون يوماً : جنرال لم ورقل واترك منصبك فكان الرجل أسرع من البرق فى جمع أوراقه والانطلاق إلى قريته .

ولو فكر أحدهما في الخروج على مشيئة أمته لما وجد خادماً يقدم له الطعام ، بل ما وجد من يسعه الخبر ، ذلك لو بقي حياً !

أما في البلاد التي يعيش فيها مليار عربي ومسلم فللثانية السياسية منطق آخر .

يقول القائد اليهودي «مردحای» : «إن النصر الذي تم لنا في حرب الأيام الستة فاق أشد الأحلام جنونا» وهذا حق ، فقد كسب اليهود أرضاً ومالاً وجاهها تتجاوز الخيال دون

خسائر تذكر ، لم تكن حربا هذه الرواية التي وقعت ! إن القادة العرب قدموا جنودهم لجزار لا تكل يداه من الذبح ، وعندما تعب من التكيل بخصمه ساق البقية أسرى !! .

ثم ماذا ؟ رجع القادة المدحورون المعصوبون بالحزى يقولون في وقاية لم يعرف التاريخ لها نظيرًا : هذه نكسة ! المهم أننا نحن بقينا . . ! .

ثم ماذا أيضًا ؟ انتظروا من الجماهير أن تهتف بأسمائهم وأن تقدم لذواتهم المصونة للولاء . . ! .

وتم لهم ما انتظروه ! قادة النصر في الغرب تستبدل بهم شعوبهم من تراه أفضل لها ، وقادة الهزيمة هنا يبقون جاثمين على صدر الأمة حتى يوردوها القبور . . .

ولا أزال أستغرب الصمت الذي يحفل قتل عشرات الألوف من المسلمين في حماة ثم في طرابلس - لبنان .

لئن كان القتل جريمة شنعاء إن هذا الصمت الجبان جريمة أشنع لكن هذه نتائج الموت الأدبي . . ومازالت تؤكد أن العمل الصعب هو تغيير الشعوب ، أما تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيًا عندما تريد الشعوب ذلك . . ! .

إن علل أمتنا غليظة ، وإذا لم ينشغل دعاة الإصلاح بعلاجها فبم يشتغلون ؟ .

هناك تقاليد انحدرت إلينا من ماض طويل ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم جاءنا الاستعمار العسكري والثقافي بتقاليد أخرى هي من مبادل الغرب وهناته ، ربما كان محسناً ضدها أو قليلاً التشكي منها ، لكنها لما جاءتنا كانت باللغة الضرر . .

هذه التقاليد وتلك ، اعوججت بتفكيرنا وسلوكنا على سوء ، وأكاد أقول : إننا بهذا الاعوجاج نشبه بنى إسرائيل قبل أن يُعاقبوا بأيام التيه ! أو نشبههم عندما ترددوا على الوحي ، ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم . .

وما خلت الأمة على تطاول القرون من مذكر بالحق وداع إلى الخير ! والذى ألفت النظر إليه أن التغيير الحاسم لا يتم ارتجالاً ، ولا يتم بين عشية وضحاها ، ويجب أن يتجرده

رجال لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا تخلي قلوبهم رهبة أو رغبة ، يمشون في الطريق الطويل الذي سار فيه الأنبياء ، ولا يفكرون في انقلابات عسكرية أو ثورات مسلحة ، إنما يفكرون في الإصلاح المتأخر ، والتغيير الذي جزم القرآن الكريم بتائجه قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) .

وهناك من يطلب السلطة لتكون بين يديه أداة التغيير المشود ! .

وأكره أن أتمنى هؤلاء أو نهجهم ، فقد عشت معهم ومازلت بينهم ، ووجهة هؤلاء الرجال أن الحكم في أرض الإسلام منحرف من زمان بعيد ، وهم يتساءلون : ما الشرعية التي يعتمد عليها هذا الحكم ؟ الحكومات المدنية تستند في مشروعية بقائها على أنها تمثل الشعب ، والحكومات الدينية تستند إلى أنها تطبق الدين ! .

فإذا لم يكن ثمّ تمثيل للشعب ولا تحكيم للدين فأين مشروعية البقاء ؟ والنزاع الدموي الطويل الذي شجر بين الفريقين يرجع إلى التناقض الحقيقى بين الأمر الواقع وطلاب التغيير ! .

وأنا أدعو هنا إلى سياسة جديدة في خدمة الإسلام ، وبناء أمته التي تتواكب حوالها شياطين الإنس والجن تكتفينا والخلاص منها .

ودعوتى أساسها الاستفادة من التجارب الطويلة ، والنظر الدقيق في الأسلوب الذى سار عليه رسول الله ، وخاتمهم العظيم محمد بن عبد الله ، الذى دعا إلى الحق ، وتنزه عن كل مأرب ، وأمن أهل الدنيا على ما بأيديهم ﴿قُلْ : مَا سألتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرًا إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) .

وقد لاحظت في أثناء الصراع القاسى بين الإسلاميين وغيرهم من الحكام ، أن أغلب

(١) الآية : ١١ من سورة الرعد .

(٢) الآية : ٤٧ من سورة سباء .

الذين يملكون الأمور يمضون مع تيار السلطة وينغمون في عبابه نغمس السمك في الماء ! .

أى أنهم يحسون أن الخروج منه انتقال إلى الموت ، فهم يدفعون عن حياتهم ، ويرون من يحاول استلام السلطة منهم قاتلا ، يجب الإجهاز عليه قبل أن يجهز عليهم ! .

وشيء ثان أن ظنهم سيئ بالإسلاميين ، فهم لا يرونهم أصحاب مبادئ بل أصحاب مطامع ، وأن مفهوم الحكم هي التي تحركهم ، فلماذا ترك لهم ؟ .

والشيء الثالث الخطير أن بعضهم يجهل الإسلام جهلاً بسيطاً أو مركباً بل لقد رأيت في سياحاتي بالعالم الإسلامي من يكره الصلاة والعفاف أكثر من كره الشيوعيين والصلبيين لها . . . !! .

ويفرض هذا كله على الدعاة التجرّد التام وهم يرفعون راية الإسلام ، وأن يعلنوا بقوة عزوفهم عن الحكم ورفضهم لمناصبه ، وإشارهم أن يقوم غيرهم بمهمة التطبيق والتنفيذ وتأييدهم القوى لمن يسارع من الحكام إلى العمل بالإسلام . .

وليست مهمة الدعاة تلمُس الأخطاء وكشف أصحابها ، ولا أن تتحول إلى نقاد سياسيين يشغلنا الهجاء عن البناء .

الذى أراه أن نكح في الميادين الداخلية لنعيد بناء أمة توشك أن تتحول إلى أنقاض ، وما أكثر هذه الميادين وأفقرها إلى العاملين إننا لو انتصرنا فيها ربحنا تسعة عشر المعركة .

وكل عمل مقرون بالجهل أو الغلو يصيب الإسلام في مقاتله ، و يجعل صاحبه – من حيث لا يدرى – عوناً لخصوم هذا الدين . .

قد تقول : إن السلطات القائمة سوف تمنعنا من هذا العمل ! فهذا ترى ؟ .

وأقول : إن الأنبياء مُنعوا من قبل عن أداء رسالتهم لكنهم مضوا في الطريق الطويل

يتحملون التكذيب والتعويق ﴿ولقد كذبت رسلا من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرا ، ولا مبدل لكلمات الله﴾ ^(١) مضوا يبنون ولا يهدمون ويحسنون ولا يسيئون ، مضوا في طريق التوعية والتربية والتبصير بالأخرة والشرف على الحياة الدنيا من مستواهم العالى ، لا يزاحون عليها ، ولا يُظنُّ بهم طمع فيها ، حتى تخير الله لهم مكان النصر وزمانه ، وكان ما قدر الله !! .

عاش من عاش محققًا رسالته ، ومات من مات مُوطّدا عند الله مكانته .

لقد سمعت شبابا يشكو طول هذا الطريق ، ويهز رأسه رافضا ، إنه يريد معركة سريعة ! .

إن ربيتى شديدة في قلوب هؤلاء أو في عقولهم ، وأدعوا الله أن يقى الإسلام شرهم .

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجّة الوداع

عندما أصلى على محمد أشعر بأنني أزجي الثناء الحسن لمن يستحقه ، وأنوّه بالعبودية الصادقة لمن عاش حياته يرضي ربّه ويجهد في سبيله ! وأسأل ربّي أن يتقبل صاحب هذه الحياة المباركة وينخلد آثاره ، وأن يساعدني على اقتداء أثره والاقتداء بسته ..

وعندما أسلم على محمد ، وإخوانه المسلمين أقف على أطلال ماضٍ طويل ، وتاريخ سحيق كان رسول الله خلاله يكافحون الطواغيت ويخاصمون الجاهليات ، وقد سال عرقهم ودمهم وتغمسن جبينهم وتنكّد عيشهما ، ولكنهم صابروا وتحملوا .. وبعد لائى دارت الرحى على الكافرين فحصدتهم ، ونجت العقائد والشرائع ومعالم الوحي الأعلى . وخلصت للأجيال المقبلة كى يتفعوا بها ، ويحصدوا ما غرس الأولون ! وقيل بعد هذا العراق المريّر ﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..﴾^(١) وقيل أيضاً ﴿سبحان رب رب العزة عما يصفون وسلام على المسلمين والحمد لله رب العالمين﴾^(٢) .

إنني عندما أصلى وأسلم على محمد ، أصل نفسى بأشرف ما في الوجود ، وأثبتت خطوى على الصراط المستقيم ، وأرتضى قيادة تختضن الحق وتؤثر الرشد ، وأعلن أن هواي مع ما جاء به .

إن الصلاة والسلام هنا توكيـد منهج وتحمل عبء ، ومشاركة قلبية وفكـرية للإنسان

(١) الآية : ٥٩ من سورة النحل .

(٢) الآية : ١٨٠ - ١٨٢ من سورة الصافات .

حرر الإيمان من الخرافات . ونقى الحق من الشوائب ، وربط الفطرة السليمة بالوحى .
وصالح بين العقل والدين ، وجعل الدنيا مهاداً صالحًا للأخرى ..

إن محمدًا ليس بشة أعاديا .. إذا كان الناس أجمعون قد خلقوا للعبادة ، فإن محمدًا كان النموذج الأكمل للعبودية المستكينة العانية المستسلمة بخلال الله ، وإذا كانوا قد خلقوا ليظهر أئمهم أحسن عملا . فإن محمدًا حلق بسيرته في مستوى ترند إليه الفلاسفة والأبطال والقادة العظام ثم يتمنون أن يدركون غباره ، ونضح عليهم سنا منه .. نعم ليس محمد بشرا عاديا ، وقد درست حياة رؤساء وساسة وملوك وفلاسفة ورجال سلام ورجال حروب ، وأناس واتتهم الحظوظ فبزواه وأخرين كبت بهم الحظوظ ففشلوا .. وأثبت بعد هذه الدراسة وأنا أحمل في نفسي تقديرًا ، خاصًا لمحمد النبي الإنسان ، النبي المربى ، النبي الذي أصبح أخطاء القرون ، وردة المعلم عنده الغائب ، وكثيرًا ما أودع تقديرى ذاك في الصيغة التي أمرت بترديدها صيغة الصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله .

استصبحت هذه العاطفة وأنا أطالع الصحف الأخيره من السيرة الناصرة وأتابع الكلمات التي قيلت في حجية الوداع ، إن الخطبة التي ألقاها في هذه الحجة لا تستغرق بضع دقائق ولكنها أهم من خطاب يستغرق بضع ساعات ، ولا عجب فصاحبها أتوى جوامع الكلم ، واختصرت المعانى له اختصاراً قوله للحق ، وأوعية للمعنى ، وشفاء لما في الصدر وذاك حسبهم من الأداء ..

وليس في خطبة الوداع شرائع جديدة ، إنها تردّيد لأحكام سبقت . أو تطبيق لأصول تقدمت ، أو تلخيص لما استفاض شرحه ، والمراد تذكير الناس عامة بما قد يحاوّل الشيطان زحزحهم عنه أو تنسيّتهم إياه ..

وكان الرسول ص يشعر بأنه قارب النهاية ، وأن الأمة التي أنشأها قد تشبت بظاهر الأرض وفرضت نفسها على التاريخ ، وانتقل الأذان مع الرياح الأربع ، وتوزعت جماعات الصلاة على أطراف الزمان ، فهى تلتقي على طاعة الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .. ماذَا بقى له ؟ لا يريد لنفسه شيئاً ، صحيح أنه مرسل للعالمين ، ليكن ،

فهؤلاء الذين ربّاهم سيمدون النور إلى ما بقى من أرض الله ، إن الجيل الذي ربّاه جزء من
الرسالة التي أداها . . .

من أجل ذلك كان يحدث وفي الوقت نفسه كان يودع ، وفي تضاعيف حديثه كان يفرغ
كل ما في فؤاده من نصح وحب وإخلاص .

والعرب قبل غيرهم من الناس أجرأ أهل الأرض أن يعوا هذه الوصايا ، فإن النبي
الخاتم عانى معاناة طويلة وهو يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويربّهم من علل يكاد
يكون الشفاء منها مستحيلًا ، وعندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هذه
الأمة عنوانًا عظيًّا على حقيقة عظيمة ، أى أن دعایتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة
توزعها وزارة السياحة ، أو خطباً تعتمد على إحصاءات مكذوبة ، أو أنباء مخالقة . . لا.
لا . إن جمال عملها بالإسلام ، وصدق بلاغها عنه هو الذي يصنع لها القبول ويجمع حوله
الأنصار.

إن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف العرب معرفة جيدة ، ويعرف أغوار الفرق
والخصام في أفندتهم ، ويريد إشعارهم بالنعمة التي أفاءها الله عليهم ، ولذلك يقول لهم
في هذه الحجة (حجة الوداع) : « ويحكم أو ويلكم !! انظروا لا ترجعوا بعدى كفارا
يضرب بعضكم رقاب بعض » !! .

ما أغلى هذه الوصية ، وما أبعد مداها في التاريخ لقوم يقلون . . على أن العلاج
النبوى ليس لطيش الغرائز عند جنس بعينه ، إنه لأجناس الخلق كلهم والأمر كما قلنا في
مكان آخر : إن الله ربّي محمداً ليربّي به العرب ، وربّي العرب بمحمد ليربّي بهم الناس
أجمعين (وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)⁽¹⁾ .

(١) الآية : ٧٨ من سورة الحج .

ومن ثم جاء في آخر الخطاب النبوى « ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

وقد دخل في دين الله بعد ذلك ألف وألف كانوا على اختلاف الألسنة وأنواعه أربعين وأقدر ، ولا يزال المذاهب متصلةً إلى قيام الساعة .

ونعرض الآن للمبادئ الرئيسية في هذه الخطبة الجليلة وفق ترتيب اختياراتنا .

١ - الإنسانية متساوية القيمة في أى إهاب تبرز ، لا يفرق بينها سواد أو بياض ، لا يفاوت بينها نسب إفريقي أو أوربي ، فالنزاعات العنصرية ، والنعرات الوطنية ضرب من الدجل والإفك ! .

ومن ذكر الواقع الرديء أن نصف الحضارة الحديثة بأنها حضارة القوميات والألوان . وأن شعوب أوروبا وأمريكا تضمر في نفسها احتقاراً لأبناء القرارات الأخرى . ومهما غطت هذا الشعور فهو يتنفس بقوة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولم تُفلح المواضيق النظرية في كسر شره . .

وقد نبه النبي ﷺ إلى ضلال هذا المسلك في خطبة الوداع بقوله : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وأدم من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال اللهم اشهد » .

٢ - ولكسب المال قصة عميقة المجرى في تاريخ البشر ، وقد راقبت الأنظمة المتضادة وهي تحاول توفير الطمأنينة بين الناس ، راقبت نظام التحكم ونظام التسعير . نظام إطلاق الملكية وتقييدها ، نظام سيطرة الفرد وسيطرة الشعب ، فوجدت أن النفس تدور حول أثرها ، ولا تبالى في سبيل غايتها . .

وما لم يكن هناك إيمان بالله فإن قوانين الأرض مسرح للعبث والظلم ، من أجل ذلك يقول الرسول في هذه الخطبة «أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه » لكن هذه الإشارة المجملة لا تغنى عن إيضاح أوسع يحسم مادة التظلم بين الناس في شتون الحياة كلها ، فلنستمع إلى هذا التوجيه المثير .

٣ - أيها الناس أتدرؤن في أي شهر أنتم ، وفي أي يوم أنتم ، وفي أي بلد أنتم . قالوا : في يوم حرام . وشهر حرام ، وبلد حرام ! قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .. ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد !

لكن بعض الجبارين ، حكاما كانوا أم ملوك ، تحملهم قوتهم على اجتياح الضعفاء ، ونكبتهم في حقوقهم المادية والأدبية ، وقد اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة ، ووقد حمامات دم ، لم يكن القصاص فيها من الظلمة بقدر ما كان من ذراريهم وحواشيهم ، ثم اتسع الخرق فهلكت ألف مؤلفة من الأبراء ، وقامت حكومات جديدة ونشأت أنظمة أخرى ، وتكررت المأساة نفسها حتى لكان التاريخ سلسلة من المظالم من يفرّ فيها من الجنة أضعاف من تحيط بهم خطاياهم ، وسوف يبقى الأمر كذلك حتى نعي قول الرسول في هذه الخطبة «إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم » ..

٤ - وكان الربا قد يرذيلة ساذجة ، أساسها إمهال المعرّب بثمن يسير أو فاحش ، ثم أنسى في المؤسسات العالمية رذيلة معقدة مدرورة تطيع فيها شعوب وجماعات ، الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هي في حاجة إليه ، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية ، ثم تأخذه على شرط شراء مواد البناء من الدولة المقرضة ، وجعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة ! وبعد أن تحدد سعر الفائدة الربوية كما تشاء ، تحدد أجور الموظفين من بينها ، وأسعار المواد التي تقدمها ، وتصرف القرض مائة ليعود إليها عدة مئات ..

وجمهُرُ الدُّولِ الْفَقِيرَةِ الْآنَ مُعْرَضَةٌ لِلإِفْلَاسِ مِنْ جَرَاءِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ الْجَسْعَةِ ، وَهِيَ تَرْنَحُ
تَحْتَ وَطَأَةِ الْوَفَاءِ بِمَا يَبْهِظُ كَاهْلَهَا أَوْ يَقْصُمُ ظَهْرَهَا ..

ووَدَّدْتُ لَوْ تَبَنَّتِ الدُّولَ كُلُّهَا مِبْدَأَ تَحْرِيمِ الرِّبَا ، وَتَقْرِيرِ مَصَارِيفِ إِدَارِيَّةٍ مُعْقُولَةٍ
لِلصَّنَادِيقِ أَوِ الْمَصَارِفِ الَّتِي تَشْتَغِلُ بِالْإِقْرَاضِ هَكُذَا عَلَمَ النَّبِيُّ الْبَشَرِيُّ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ قَرْنَاهُ
عِنْدَمَا قَالَ « . . . أَلَا وَإِنْ كُلَّ رِبَّا فِي الْجَاهْلِيَّةِ مُوْضُوعٌ ، وَإِنْ لَكُمْ رُؤُسَ أَمْوَالَكُمْ لَا
تَظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، قَضَى اللَّهُ أَلَا رِبَا ، وَإِنْ أُولَئِكُمْ أَبْدَأُوهُ - أَسْقَطُوهُ - رِبَا عَمِيٍّ
الْعَبَاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ » - وَكَانَ مِنْ كُبَارِ التَّجَارِ الْمُتَعَامِلِينَ بِالرِّبَا .

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تَحْرِيمَ الرِّبَا لَا يَسْتَرِيحُ لَهُ إِلَّا مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ ، وَقَدْ قَالَ بِشَنَاعَةِ الرِّبَا كَارْلُ
مَارْكِسُ فَهُلْ نَفَذَ التَّحْرِيمُ مِنْ حَكْمِ بَاسْمِهِ مِنِ الشِّيَعَيْنِ؟ كَانَ الرُّوسُ يَبِيعُونَ السَّلَاحَ
لِلِّدُولِ التَّابِعَةِ لَهُمْ بِأَغْلِيِّ الْأَسْعَارِ ، ثُمَّ يَتَقَاضُونَ الثَّمَنَ الْمُؤْجَلَ مُضَافًا إِلَيْهِ رِبَا فَاحِشًا ! .

إِنَّ الْحُضَارَةَ الْمَادِيَّةَ الَّتِي تَقْوِدُ الْعَالَمَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْيَوْمَ الْحَاضِرِ وَالرِّبَعِ الْعَاجِلِ ، أَمَّا قَوْلُهُ
تَعَالَى ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عَسْرَةَ فَنَظِرْتَ إِلَى مِيسَرَةَ ، وَأَنْ تَصْدِقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)
فَحَدِيثٌ خَرَافَةٌ عِنْهُمْ ! .

٥ - وَصِيَانَةُ الدَّمَاءِ قَضِيَّةٌ خَطِيرَةٌ وَعِنْدَمَا كَتَبَ اللَّهُ الْقَصَاصَ فِي الْقَتْلِ وَالْجَرَاحَاتِ ،
كَانَ يَرِيدُ زَجْرِيَّةَ الْمُجْرِمِينَ عَنِ الْعُدُوَانِ ، وَعِنْدَمَا يَعْلَمُ امْرُؤٌ أَنَّهُ لَاقَ حَتَّمًا الْمَصِيرَ الَّذِي يَوْقِعُهُ
بِغَيْرِهِ سَيَرِدُ طَوِيلًا فِي قَتْلِ هَذَا أَوْ جَرْحِ ذَاكَ . . . وَإِذَا غَلَبَهُ الطَّيْشُ فَاعْتَدِي فَإِنْ مُنْظَرُهُ
مَقْتُولًا أَوْ مَعَاقِبًا سَيَوْقَعُ الرَّهْبَةُ فِي قُلُوبِ الْآخَرِينَ ، وَقَدْ قِيلَ : الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ ، وَقَالَ
اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢) .

وَأَغْلَبُ الدُّولِ الْعَظِيمِ الْآنَ أَلْغَى الْقَصَاصَ ! وَاكْتَفَتْ بِعَقُوبَاتِ تَافِهَةٍ لَمْ تُجِدْ فِي حِمَايَةِ

(١) الآية : ٢٨٠ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٢) الآية : ١٧٩ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

المجتمع ، وأصابتنا حُمّى التقليد ، فشاعت بيننا الجرائم ، وانشغل المظلومون بطلب الثأر
لمن يتمنى إليهم أو يتمنون له .

وقد حسم الإسلام هذه الفوضى ، بشرائعه العادلة ، ويجب علينا إسدال ستارة سميكة
على الانحرافات التي سادت العالم لتبأ بعدها صفحة جديدة من تطبيق الأحكام
السماوية .

ولا كرامة لباطل كما قال رسول الله في هذه الخطبة الجامعة « ألا وإن كل دم ومال ومؤاثرة
كانت في الجاهلية ، تحت قدمي هذه ، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد
المطلب » - قتله المذليون في الجاهلية وكان بين ظهريهم - وأراد النبي الكريم أن يفتح
العرب بالإسلام صفحة جديدة تجحبُ الماضي ، ويبدأ بها عهد جديد .

٦ - وتحدث النبي ﷺ عن حقوق النساء ، وهو حديث يحتاج إليه المسلمون المعاصرون ،
كما يحتاج إليه بقية الناس في المشارق والمغارب ، ذلك أن موراث المسلمين الثقافية مثقلة
بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أن الأوربيين أسفّت بهم شهواتهم إلى مدى رديء .

كان العرب لا يرون المرأة شيئاً ولا يقيمون لها وزناً ، بل لعلهم حسبوها شرّاً لابدًّ منه !
وقد جآ بعضهم إلى قتلها وهي طفلة حسماً للمتعاب والمخازي !! .

ولما جاء الإسلام محا هذا المنطق محوا ، وبين أن النساء شقائق الرجال ، وأنهم سواء في
تكاليف العقائد والعبادات والأخلاق ، وأنهم سواء في استحقاق الثواب والعقاب بما
يعنون من جهد في سبيل الله ، وأن الزعم بأن الذكورة تقدم صاحبها وأن الأنوثة تؤخر
صاحبها لون من الكذب .

وبذلك رفض الإسلام ما كان شائعاً بين العرب من ازدراء الأنوثة ، وأقام مجتمعه الجديد
على قواعد أخرى ، وإن كانت الطبيعة العربية فيها بعد تمرّدت على هذه القواعد ، وكما
نزعـت إلى التشرذم والعصبيات والمنافرات وسفك الدم نزعـت إلى حصر وظيفة المرأة في

شهوتي البطن والفرح ، وضنت عليها بالوجود في ميدان العلم والثقافة والعبادة والإصلاح ودعوة الخير التي هي الصفة الأولى للأمة الإسلامية ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾^(١).

ولا ريب أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها ، كما أنه لا ريب في أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض ، ومنع أي عبث بها .

والأمة الراسدة تستطيع التوفيق بين هذه الأهداف جائعا ، فلا تضع المرأة في قفص الاتهام بغباء ، ولا تطلقها لتكون مصيدة للآثام ، ولا تجور على غيرة الرجل ، ولا تهمل حقوق الله .

وقد يخطيء الرجل فيؤاخذه المجتمع ، ولا يدع تأدبه ، وقد يخطئ المرأة فلا يتركها الدين وإنما يدع أمر تأدبه إلى زوجها : ليكون جبارا بل ليمنع العوج والنشوز ، ويعيد الاستقرار في جوانب البيت ..

وفي ذلك قول الرسول ﷺ في خطبة الوداع « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا ، فعليهن ألا يوطئن فُرُشَكُمْ أحدا ، ولا يدخلن بيوتكم أحدا تكرهونه ، إلا بإذنكم ! فإن فعلن ^(٢) فإن الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ! وإنما النساء عندكم عوائلا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ! .

ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ! قال : « اللهم اشهد » .

(١) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) هذا التوجيه النبوي يشير إلى - العلة التي يقع من أجلها التأديب ، ولا ريب أنه مما يغضب الرجل أن يدخل بيته غريب ، أو كريه ، كما يغضبه أن ترفع المرأة عليه - وهو معنى النشوز - والتأديب المشروع ليس جلد حيوان ، وإنما هو إشعار بالحق المنكر .

وعقد الرواج ليس عقد استرقاء ، ولا عقد ارتفاق لجسد المرأة ، إنه أزكي من ذلك وأرقى ، ولم يقل الشارع : إن المرأة إذا ارتكبت خطأ ارتكب الرجل ضدها خطيئة ، والمحزن أن تقاليد المسلمين بعيدة عن دينهم ، وليس قط صورة تشرف الإسلام .

ولا نعتذر بذلك لدنايا الغرب أو نهون منها ! وإنما نريد إنصاف الشريعة ومحو الغبار الذي أخفى معالمها ، وشرع الله أفضل من أهواه الناس في الشرق أو الغرب .

٧ - وفي حجة الوداع أكد النبي ﷺ حرمة الأشهر الحرام ، وهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان ، إن الأمم تحتاج إلى أمكنة وأزمنة يتوفّر فيها السلام والهدوء ، وتقلّم فيها أظافر الوحش الرابضة في دماء البشر ، أمكنة وأزمنة يأمن فيها الإنسان على حقوقه المادية والأدبية ، ويُثْقَلُ بأنه لن يجد أذى أو كيداً من عدو أو صديق .

وقد أهّم الله إبراهيم وَمُحَمَّداً عَلَيْهِ السَّلَام فجعلاً مكّة والمدينة حرمين آمنين ، كما أنه سبّحانه جعل من السنة أربعة شهور تُجْمَدُ فيها الخصومات حتى وتوقف الحروب .. وفي عصرنا حاولت بعض الدول أن تجعل نفسها محايده بين شتى الجبهات . كما أن هناك محاولات لجعل مناطق من الأرض مجردة من السلاح الذري ، والمحاولات لكافحة شرور الناس متصلة ! .

يُدَّلِّلُ أَنَّ الأَشْرَارَ لَا يَكْفُونَ عَنْ بَسْطِ أَيْدِيهِمْ بِالشَّرِّ مَا اسْتَطَاعُوا ، وَفِي الْجَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حَاوَلَ نَفْرُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ إِيْطَالَ حَرْمَةِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، لَأَنَّهُ كَانَ رَاغِبًاً أَنْ يَقَاتِلَ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَأَفْتَى نَفْسَهُ بِأَنْ يَحْلِمَهُ ، وَيَحْرَمَ شَهْرًا آخَرَ مِكَانَهُ ، وَيُمْكِنُ الْإِرْجَاءُ وَالْتَّبْدِيلُ تَبْعَدَ لِلَّهُوَى .

وَلَا رِيبُ أَنَّ ذَلِكَ أَضَاعَ مَكَانَةَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَمَكَنَّ الْأَقْوَيَاءِ مِنَ الْعُدُوَانِ ، كُلُّهُمْ تِسْرِيرٌ .

وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ نُوَدُّ لَوْ يَمْلأُ السَّلَامُ أَرْجَاءَ الْأَرْضِ ، وَيَسْتَغْرِقَ أَعْمَارَ الْبَشَرِ ، وَأَنَّنِي لَنَا ذَلِكُ ؟ فِي كُلِّ صَلَاةٍ نَهْتَفُ مِنْ أَعْمَاقِنَا « السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عَبْدَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ » وَفِي كُلِّ صَلَاةٍ نَتَلْفَتُ يَمِينًا وَيَسِيرًا لِنَوْزِعِ السَّلَامَ حَوْالِنَا ! .

ومع ذلك لم نفلت من شباك الفتانيين والجبارين فخضنا الحروب كارهين مكرهين ! ولا نزال كذلك حتى يوم الناس هذا ، فماذا نصنع ؟ .

إن نبينا صلوات الله عليه ناشد الناس أن يستعيدهم حرمة الأشهر الأربعة فلا يظلموا أنفسهم فيها ، وعسى أن يكون ذلك ذريعة إلى منع القتال طوال السنة ! ونحن نستأنف هذه المناشدة ! بيد أننا نرفض أن تستغلّ ضدنا ، فسوف نقاتل يقيناً إذا اعتدى علينا في أي شهر أو إذا استجمم العدو خلاتها وأعدّ عدّته للهجوم متربّصاً بنا السوء ! .

إننا نعرض على العرب وغير العرب احترام الشهور لتنفس فيها الإنسانية بهدوء .

قال عليه الصلاة والسلام : « أيمان الناس إنما النسوة زيادة في الكفر بضلّل به الذين كفروا يحلونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله » — والنسوة كما أشرنا آنفاً إرجاء حرمة الشهر إلى شهر آخر حسب الهوى ، وقد ظلوا يفعلون ذلك حتى رجع الشهر المستباح إلى وضعه الطبيعي فقال النبي الكريم : « ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متواالية وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ فقالوا : نعم قال : اللهم اشهد .

٨ - بديه أن يكون النبي ﷺ حريصاً على مستقبل أمته ، كارها أن يصيّبها ما أصاب الأمم الأولى من زيف وغضب ! والحق يخاف عليه من ناحيتين كلتاها شر من صاحبتها ! .

الأولى : غارة همجية تدك قواعده وتحرو معاليه ، وهذه تجربة من الخارج والأعداء كثيرون .

والأخرى : فوضى علمية وعملية تجعل الغلوق يغلب القصد ، والعوج يغلب الاستقامة ، فإذا وجّه الحقيقة دميم ، وباطنها سقيم .. وهذه تجربة من الداخل ، وخلل

الأديان القديمة أتى منها ، والمغالون والمنحرفون قد يكونون شرًا من العاصين والفاجرين .

وقد هوجم الإسلام من الداخل والخارج على سواء ، وحاولت الشياطين أن تطفئ نوره ، ولكن الله كتب له الحفظ وضمن لأصوله الخلود ..

ونحن في هذا العصر نشكو جراءة العدو وطول يده في نهينا ، وغلوظ طبعه في إهانتنا ، وعند التأمل العميق نرى المسلمين قد لحقتهم مغامر فادحة ، وسقط لهم قتلى وجرحى كثيرون ، أما المفقودون الذين تاهوا هنا وهناك ففوق الحصر !! .

ومع شناعة الغزو الخارجى ، فإن فوضانا الداخلية كانت أنكى ، وسمعة الإسلام العالمية تخرج الصدور ، حتى كتب بعض أعداء الإسلام عن التفرقة العنصرية في الإسلام (!) كيف شرعاها وقررها ، وحتى عُرف أن الإسلام يرجع جانب الفرد المستبد على رأى الأمة (!) وأن الإسلام صديق الفقر والتخلف ، وأنه عدو المرأة ، وأن المال في مجتمعه دُولة بين الأغنياء (!) ومناكر كثيرة حاربها الإسلام منذ ظهرت من تعاليمه .

والغوضى الداخلية عندنا هي المسئولة عن هذا البلاء ، وأعتقد أنها سبب الاستعمار الذي أذل جانبا .

ومع سوء الفقه وسوء الحكم خارت قوى المسلمين وذهبت ريحهم ؟ ! ثم تطلعت الأخلاف بعيدا فرأيت بريق التقدم يتخلل أقطارا أخرى لها فلسفات متبرجة ودعوى ضخمة !! .

فظن المظلومون أن العدالة هنالك ، وظنَّ الفقراء والمحرومون أنهم واجدو النعمة والكرامة في مذاهب القوم ومسالكهم ..

بل ظن أصحاب البلاهة والجهل أن الإسلام كان السبب فيها عرا البلاد من تقهقر ، وخير لهم أن يستبدلوا به المبادئ التي خلبتهم ..

وراجت سوق العلمانية والشيوعية والديمقراطية ، وهي مذاهب سدَّت نقصا ملحوظا

عندما ظهرت ، لأنها ظهرت في بيئات كان الخصوم فيها شديداً بين العلم والدين والعدل الاجتماعي والنظام الظبئي ، وبين حقوق الشعوب والحق الألهي للملوك ! .

إلا أنها مذاهب قرنت بكل خير قدمته شرّاً يساويه أو يربو عليه ، فإذا العالم مملوء بالإلحاد والفساد والأثرة ، وانضم إلى ذلك شيء آخر مثير للعجب ، إن الأديان الأرضية والساواية جمِيعاً لبست هذه المذاهب الجديدة على ضعائنهما وخرافاتها القديمة ، واشتبت مع الإسلام ترید محوه والعيش على أنقاذه ، فعلت ذلك الوثنية واليهودية والنصرانية دون حياء ، وال الحرب الآن على قدم وساق في الشرق الأقصى والأوسط وفي إفريقيا وجنوب أوروبا . .

وبابا الفاتيكان وغيره يقومون برحلات وسياحات متتابعة للإجهاز على الدين الجريح . .

بل إن الشيوعية - والمفروض أنها ذات صبغة عالمية - كشفت عن أنها حركة تخدم القومية الروسية أو الصينية ، وتوسّس استعماراً من لون جديد وتعرّض للفناء ثمانين مليونا من المسلمين ، وتعمل على محو شخصيتهم ، وإفباء عقيدتهم . . .

إنى أحذر أمتى الكبرى من فناء ذريع يجتاحتها مع هذا الاسترسال في الغفلة والجهل بما يحاك ضدها من مؤامرات ، وعجزها الشائن عن رد عدو يوشك أن يأتي عليها من القواعد .

ولتعلم أمتنا ، أن الحل الأول هو الحل الأخير ، وأن التعاليم التي صنعتها قدِيماً هي التي تصوننا الآن ، وأن التفريط في الإسلام محو لكيونونتنا قال عليه الصلوة والسلام «أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنَه قد رضى أن يطاع فيها سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمت به فلن تضلوا أبداً ، أمرأينا : كتاب الله وسنة نبيه ، وإنكم سُسألون عنى ! فما انتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدیت ونصحـت ! فجعل يشير بإصبعه السبابة إلى

انسلا ، ثم إلى الناس وهو يقول : اللهم اشهد اللهم اشهد ॥ .

هذه هي المعانى التى شاء الرسول أن يؤكدتها في حجته الأخيرة بالناس وهو يقول : أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى : لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . . . !

والوصايا التى أودعها النبي ﷺ ضمائر الناس لا تتضمن قضايا فلسفية ولا نظرات خيالية ، إنها مبادئ سبقت في كلمات سهلة سائفة ، لكنها استوعبت جملة الحقائق التى يحتاج إليها العالم ليرشد ويسعد .

وهي على وجانتها أهدى وأجدى من مواثيق عالمية طنانة .

ذلك أن قائلها كان عامر الفؤاد بحب الناس والعطف عليهم ، شديد الحرص على ربطهم بالله وإعدادهم للقائه ، عميق الشعور بعبء البلاغ الذى أخذه على عاتقه ، موقنا بأن الحياة الصحيحة يستحيل أن تتم بعيداً عن الله ووحيه . . .

وقد نأى المسلمين - في هذا العصر - عن مواريثة نبيهم ، وإذا كان الشيطان على عهد النبوة قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب . . . وإذا كان الإسلام على عهد النبوة قد دفن النعرات الجاهلية والعصبيات الدموية ، فإن هذا العصر جدد آمال الشيطان ، بل نفح فيها روح القوة . . . والعالم الإسلامي اليوم تتوزعه نحو مائة قومية ، وتمشى جماهيره تحت مائة راية . . .

وبعض هذه القوميات يقبل الإسلام ضيقاً عليه - ضيقاً فحسب - وبعضها الآخر تبلغ به القحّة أن يعد نفسه بديلاً عن الدين . . .

وقد تفرسنا في هذه القوميات البديلة عن الدين كما يزعم أصحابها ، فإذا الدين المزهود فيه هو الإسلام وحده ! وإذا القوميات المتخللة مصيدة استعمارية لطعن الإسلام وحده ، والسماح بالمرور لكل دين آخر . . .

والقوميات الكبيرة تتجول في محيط السياسة العالمية كأنها حيتان فاغرة فاهما ، تتبع ما تريده ، وقد استطاعت أن تصنع في إفريقيا أكثر من خمسين قومية صغيرة ، أقيمت وفق

مواصفات خاصة ، وأشرف على تحطيط حدودها رجال الكنائس المسيحية ، وذلك لتنفيذ خطة الفاتيكان في القضاء على الإسلام وجعل النصرانية الدين الأول في هذه القارة . . . والخطة المرسومة تنفذ بأناة ودهاء ، ويتعهد بها البابا نفسه بزياراته وبركاته (!) . . . وما صنع في إفريقيا صنع مثله من قبل في آسيا ، فروسيا أنشأت الاتحاد السوفيتى من أربع عشرة قومية ، خمس منها إسلامية ، قيل لها كى تقف مقاومتها الحرية : إنها لن تضار من الانضمام إلى هذا الاتحاد من الناحية الدينية . . .

قال الأستاذ أحمد سليمان المحامى في مجلة الفكر الإسلامى السودانية : أصدر لينين منشوراً مليئاً بالوعود الحسنة للمسلمين ، وقعه معه ستالين في ١٥/١٢/١٩١٧ م - إذ كان مسئولاً عن شئون القوميات - جاء فيه : إن أديانكم وعاداتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء ! نظموا حياتكم القومية تنظيماً يستند إلى أسس الحرية والاستقلال ، وهذا من حكمكم الشرعى (!) واعلموا أننا نحن البلاشفة ندافع عنكم وعن حقوق كل الشعوب التى تعيش في أنحاء روسيا . . إننا برفع علمنا هذا ، إنما نعلن للشعوب المستعبدة في روسيا شعار الحرية والاستقلال . . أيها المسلمون ، نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والأدبية » .

ولكن سرعان ما نكص ستالين عن وعده عندما استتب له الأمر . . وهو بهذا النكوص يكرر ما فعلته من قبل القيصرة كاترين الثانية التى وعدت المسلمين بحمايتهم إذا استكانوا للحكم الروسي ، فلما ملكت أمرهم أصدرت في ٤/٨/١٧٨٣ م منشوراً تعلن فيه دون حياء ، بل تعلن فيه وقد أخذتها العزة بالإثم حشتها بوعدها قائلة : « لذلك أرانى فى حل من تعهاداتى السابقة بالتخلى عن القرم ، وترك شعوبها حرية مستقلة ، وأجد من حقى أن أعود فيها أعطيت وأن أضع يدى على هذا الإقليم . . » .

الواقع أن المسلمين ضياع في روسيا على عهد القياصرة البيض والحرمر جميعاً ، وأنهم يعاملون باستهانة وجفاء ، وقد شرحنا ذلك في كتابنا « الإسلام في وجه الزحف الأحمر » . إنه - كما ينقل موظف من بلد إلى بلد - تنقل شعوب بأسرها من قطر إلى قطر ! وتبتر بترا

علاقاتها بها ضيّها ومجتمعها وأواصرها الروحية والتاريخية ، يكفي أن يضمن لها الأكل ، كما يضمن للدواب العلف ثم تظل تكدرح إلى أن تهلك !! كذلك فعل بال المسلمين .

ويقول الأستاذ أحمد سليمان : إن الأساليب التي اتخذتها كاترين هي ، هي التي اتخذها ستالين ، الحكام أغلبهم من القومية السلافية ، والنفي مصير كل من يرتاب في ولائه ، بالإعدام يقضى به حتى على كل من يرفع صوته متبرما من ظلم وقع عليه أو على غيره . . . وكما فرضت كاترين توطين بعض الطوائف الكارهة للإسلام في أرض الإسلام فعل ستالين ، فقد نفى عشرات الآلاف من المسلمين إلى سيبيريا واستبدل بهم مهاجرين من قوميات أخرى ، وفي أحد الأفواج التي نقلت إلى الأرض الإسلامية بلغ عدد اليهود القادمين خمسة وثلاثين ألفا ، وكان بعض البلاشفة من السلالات اليهودية يقولون لبناء جلدتهم : لقد انتقمنا لكم من المسلمين الذين طرد أسلافهم جدودكم عندما كانوا في جزيرة العرب !! وها أنتم أولاء تعيشون وسطهم في أرض الاتحاد السوفياتي العظيم . . .

المأساة الكئيبة أن المسلمين يجهلون تاريخهم ، وأن العرب خاصة يجهلون أو يحددون ما

صنع الإسلام لهم وكيف رفع خسيستهم !!

إنى أذكرهم بوصايا النبي وهو يوّدعهم ، ويدعهم يواجهون الحياة وحدهم ! إنه يقول لهم : لستم وحدكم ، معكم كتابى وستى ! ميراث لا يُعَدُّه ميراث احذروا التهاون به ، فمن فعل ذلك ﴿فَكَانَهَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(١) .

سلام على صاحب الرسالة الخاتمة ، مادامت الأرض والسماء ، وما قامت بربها الأشياء .

* * * *

(١) من الآية ٣١ سورة الحج .

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع
١٩	لماذا جفت ينابيع هذا العلم ؟
٣٥	قضية الأخلاق عندنا
٤٥	في عالم المرويات
٦٣	أمة الخير يجب أن تؤدي رسالتها
٧٧	أما هذا الحقد من حدّ؟
٨٩	حملة صلبيّة على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم
١٠١	الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ
١٢١	الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع

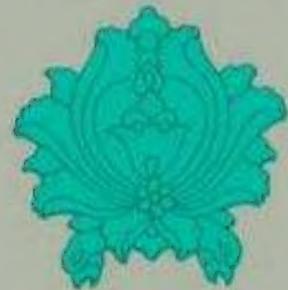
رقم الإيداع ٨٧٧٣١

الرقم الدولي ٤ - ١٤٤ - ٩٧٧

مطبع الشروق

وَوَبَ حَسَبْ ۖ وَوَبَ حَسَبْ ۖ وَوَبَ حَسَبْ ۖ وَوَبَ حَسَبْ ۖ

الطريق من هنا



ليس العمل المطلوب مضاع كلام فارغة . أو
محاولات فقهية . أو خصومات تاريخية . إن العمل
المطلوب أسمى من ذلك وأجدى .
وليس من الإسلام أن أضع قدما على أخرى ثم
أرتفع من حن سليمان أن تضع بين يدي مقابلة
الحكم .

أريد من المسلمين أن يبدأوا العمل لغورهم في
البلادين المجهولة الوعرة التي ذكرت خارج طاف هذا
الكتاب ولوا الحكم أم لم يلوه !

«فَلَمَّا نَذَهَنْ بَلْ كُلَّا مِنْهُمْ مُنْتَهُونْ . أَوْ لَرِبَّكْ
الَّذِي وَعَدَنَاهُمْ كُلَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونْ .»

صدق الله العظيم

دار الشروق

